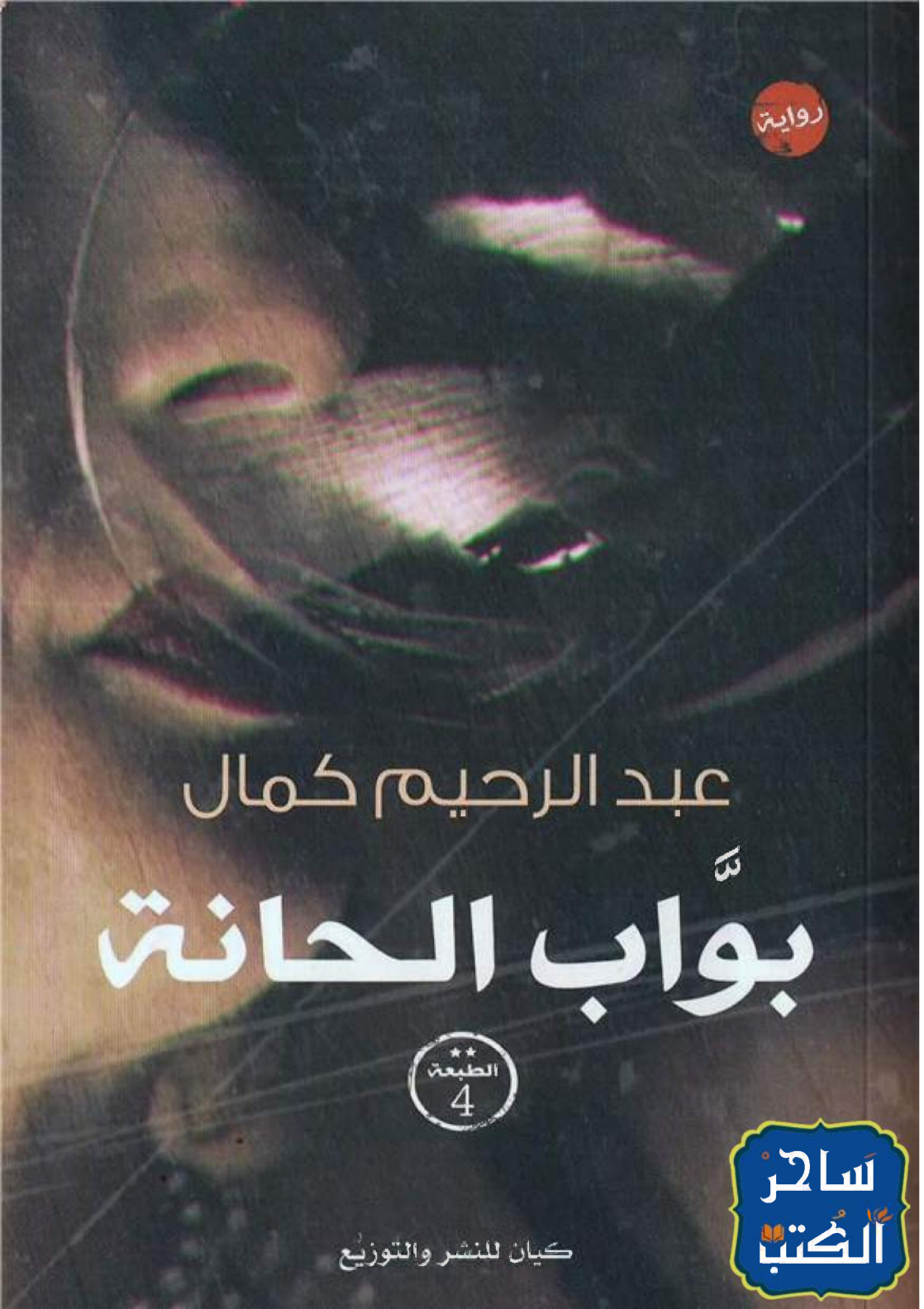
رواية
عبد الرحيم كمال
بوّاب الحانة
الطبعة 4
كيان للنشر والتوزيع
ساحر الكتب

بواب الحانة

عبد الرحيم كمال

روايـة

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

للكتب الحصرية ← www.sa7eralkutub.com

إلى أمي

مثل أعياد الميلاد تمامًا أحتفل

ولكن بلا شموع ولا فرح

فقط أحتفل كل عام بالفقد

حينما أتذكر رأسي على حجرك

تهدهده يدك وأصابعك تبعث فيه الراحة

وتصنع طريقًا تمر منه شخصياتك الموصوفة بدقة بصوتك الهامس

لأدخل كل ليلة باب النوم من ممر الحكايات وأنام نوم من لا يخشى يقظة على واقع أليم.

قبل الحكاية...

«لم يكن ذلك الحجر الكبير ساكنًا.. كان عاشقًا.. لم يصل إلى ذلك السكون إلا بعد رحلة مضنية من العشق والحركة والجنون حتى سكن.. وصار حجرًا كبيرًا ساكنًا في مدخل الحديقة العامة».. هكذا تحدث حسان مع نفسه وهو يستريح على الدكة المطلة على البحر...

-١-

عجب

في الصعيد يتداولون قصة عن الصبر، سمعتها شفاهة من نساء عجائز، عن أم عاقر تمنت أن تلد فتاة جميلة، وتُلبسها في ساقيها خلخالين، الأول من فضة والثاني من ذهب، وتحقق حلمها وأسمت الفتاة «عجب».. وتعرضت عجب لمحنة كبرى حينما رأت «شيخ الكتاب» يأكل طفلاً صغيرًا، فهربت منه وهرولت بأقصى سرعة، وحينما تعلقت ساقها في أثناء الهرولة بحلقة في الأرض، تركت الخلخال الذهب يسقط وواصلت الهروب، لتختبئ في بستان لأمير، يقبض عليها ويختبرها ويتزوجها، وكلما أنجبت له ولدًا يأتي «شيخ الكتاب» ويظهر لها ويخطف الولد، ويضع دمًا على فمهما ويختفي.

ثلاثة أولاد يختفون والدم على فم عجب، فيُطلقها الأمير بعد أن يشك في جنونها وأكلها لصغاره، ويُلقي بها في مكان تربية الحمام والإوز، ويتجهز للزواج بأخرى، ويطلب منها ليلة عرسه أن تطلب منه شيئًا كهدية، فتطلب أن يحضر لها «جرة الصبر» وبعد رحلة بحث يقبل عليها الأمير بجرة الصبر، ويتركها إلى جوارها ويذهب لإكمال مراسم العرس.

تجلس عجب إلى جوار جرة الصبر تحكي مأساتها، والجرة

تهتز وتفور، وحينما تنتهي عجب من حكايتها تنفجر جرة الصبر ويخرج منها «شيخ الكتاب» وفي يده أولادها الثلاثة أحياء، وقد صاروا صبية، وفي اليد الأخرى فردة الخلخال الذهب، ويكون هذا الشيخ هو اختبار عجب في الصبر والصمت.. سألها الشيخ باسمًا:

- ماذا رأيتِ يا عجب حين أخذت الفضة وتركتِ الذهب؟

- فترد في حزن وصدق:

- رأيت معلمًا يعلم الصغار الأدب.

فيرد:

- ولو بُحتِ بالسر يا عجب لأريتكِ أعجب العجب.

وتركها مع أولادها الذين صاروا صبية مهذبين متعلمين، وصحبتهم إلى أبيهم الأمير الذي يستعد للعرس، فضم إليه أولاده وصدق عجب. وهذا لون من ألوان الصبر على ما نفهم، الصبر على الظاهر الأليم ثقة في باطن رحيم، تمامًا كقصة «موسى والخضر» في سورة «الكهف».

وكل حكاية تخلو من «عجب» ليس لها معنى.

-٢-

عبد الله العراقي

الظهيرة في بغداد.. وعبد الله يترك زوجته زينب وأولاده الثلاثة «طارق وعدي وسعدون» ويخرج ليطمئن على شوارع بغداد، وليحقق فكرة راودته من ليلة أمس.. فكرة صارت هي أكثر أفكاره إلحاحًا وضرورة وأهمية على غرابتها، قرر عبد الله أن يستحم في نهر «الفرات». ها هي الشوارع خالية تمامًا، فالقصف غالبًا ما يتوقف نهارًا ويتواصل ويشتد ليلاً، في قصد وتعمد، حتى يرى المواطن كل مكان عبارة عن شاشة صغيرة مظلمة، تتخللها بقع متتالية من ضوء ولهب، فيزداد الغموض ويصحب الصورة الغامضة رعب وكآبة، تظل تحاصر من شاهد ذلك سنوات عدة.

خرج عبد الله في عز الشمس وعز الحرب.. لا يوجد إلا قليل من المارة، أولئك الذين خرجوا للشوارع المترقبة ليطمئنوا على أنها ما زالت موجودة، أو أنهم ما زالوا فيها موجودين.. لم يلتفت أحد منهم إليه ولم يلمح الفكرة التي ملأت رأسه.

اقترب عبد الله من شاطئ نهر الفرات. سور الشاطئ من حديد تقليدي يشبه شاطئ نهر «النيل» في القاهرة، والشوارع لا تختلف عن شوارع دمشق والرياض وبيروت ومراكش

وعدن. الاختلافات بسيطة والطابع واحد. نفس اللغة، نفس القلق والمآذن، نفس الطبقية والأهواء والأخطار. طابع مثل ذلك الطابع الذي تتسم به عائلة عريقة قديمة ذات مجد. ورغم اختلاف الأجيال مع مرور السنوات وتشعب العائلة إلى فرع غني وفرع فقير، فرع متقدم وعصري وآخر تقليدي ورجعي، يظل الطابع العام يشير إلى أن هؤلاء الأفراد من تلك العائلة.

تردد عبد الله هل يخلع ملابسه أم ينزل الفرات بها. تلفت حوله فلم يجد أحدًا يرقبه. ارتعد من تصور صاروخ أمريكي مسوم يتجه نحو جسده العاري السابح في النهر. ابتسم عبد الله هامسًا لعقله:

- الأمريكان لديهم مهام أكبر من حرق عبد الله عاريًا.

خلع قميصه وظل مترددًا ببنطلونه الجينز «ها لقد ألبسوني البنطلون الجينز من قبل أن تطحن صواريخهم البلاد والعباد».

بالأمس لم يغمض له جفن. ادعى النوم والطمأنينة بجوار زينب، وعينه ترمش مع كل قصف. اعتاد على ذلك الصوت منذ سنوات قريبة، اعتاده في حرب السنوات العشر مع الفرس. هكذا كانوا يسمونهم وقت الحرب. الفرس والمجوس كانوا قبل الحرب يملأون النجف الأشرف علماء مهذبين ووقورين، يأخذون علومهم وروحانياتهم من تلك المدينة المقدسة، ويعود بعضهم لطهران كعلماء مبجلين. كيف سولت لهم أنفسهم أن يقصفوا بعد ذلك البلاد التي

قدسها أولئك المجوس.

يصمت حديث نفسه ويتأمل موج الفرات الهادئ، بحكمة تجعله يسأل في حزن:

- ربما كنا نحن البادئين؟ تقصد من؟ تقصد مهيب الركن؟

ارتعش جسد عبد الله رعشة أكبر من السابقة، وتلفت حوله تلفتا أخرق. لعل أحدهم قد سمع صوت إساءته الداخلية غير المكتملة. اقترب أكثر من النهر وشرع في خلع البنطلون وصار بسرواله الداخلي، وخاض في نهر الفرات حتى وصل الماء إلى سرته. شعر ببعض القوة والجرأة وسأل هامسًا:

- هل تكره «صدام» يا عبد الله؟

مط شفتيه في شك وعدم تحديد للإجابة، وخاض حتى بلغت المياه شعر صدره الأشيب، وسأل مرة أخرى:

- هل تحب «صدام» يا عبد الله؟

مط شفتيه أكثر ثم أغمض عينيه وخاض أكثر.

كان على عبد الله العراقي أن يجيب على سؤال البرديسي الدائم له:

- من أنت؟ من أين أتيت؟ ومن دلّك على حانتنا يا عبد الله؟ أصعيدي أنت رمته الحاجة لبلاد القسوة؟ أم أنك فلاح غرته المسافة القريبة من العاصمة؟ كل العواصم سراب يا عبد الله يا سكران، كل العواصم سراب وكل القرى والمدن

البعيدة ظمأ.

يبتسم عبد الله ويرد:

- أنا مصري أصلا.. أنا «عبد الله البغدادي عبد الله حسين الكاظم» وحين اشتد القصف على الناس غطست في نهر «الفرات» وأخذتني سنة من النوم، واستيقظت مفزوعا وخرجت من النهر لأجد نفسي في بلادكم.

خرج عبد الله العراقي عريانًا من النهر وسار مبللاً. يداري نفسه في خجل بيديه ويغطس مسرعًا وهو يرى امرأة تغسل حصانها في النهر، فيهتف بها محذرا:

- يا سيدتي ألا تخشين القصف؟ ألا تخافين على الحصان؟

ترد مبتسمة، والماء المرشوش من سطح النهر على ظهر الحصان يجعل لونه يلمع، ورقبتها تلمع بحبات العرق الصافي:

- ما دام ذهب الرجل فما فائدة الحصان؟ تتزوجني يا أبا لكنة غريبة؟

أدرك بعد مدة أنه يخرج من نهر النيل بمصر، وتحديدا عند شاطئ مصر القديمة، حيث اعتادت «فواكه» أن تغسل حصانها.

-٣-

جميع الألعاب للتسلية

تلك كانت اللافتة الوحيدة في الحانة، ويُلمعها بيد مخلصة بواب الحانة حسان.. و«بواب الحانة» لا يسكر.

بواب الحانة يستقبل الضيوف بابتسامة ويربت على كتف السكارى بحنان عند الوداع، بواب الحانة طيب والخمر ينسكب من عينيه.. رضي الله عن بواب الحانة.

وعلى الرغم من أن زبائن الحانة يشكلون قوامها وتكوينها ومزاجها، فحقيقة الحانة وروحها في «البواب»، سنوات طويلة مرت لا يتذكرها بواب الحانة نفسه، لكنه يتذكر أنه كان أزهريًا حافظًا للقرآن وصاحب صوت جميل وعلّامة في الفقه على المذاهب الخمسة؛ الأربعة المشهورة وخامسها الفقه الجعفري، الذي أجازه الأزهر كفقه معتبر يجوز التعبد به إلى جوار فقه أئمة السنة الأربعة.

كان مثار إعجاب الجميع. شاب يافع نحيل يحفظ آلاف الأبيات من الشعر، يخلو ليلاً ليغني فيجد الطلبة في «الأزهر» يستمعون إليه في حلقات. اختار «الصوفية» وارتاح لها أكثر من مذاهب أولئك المتشددين قليلي الابتسام، وظل على طريقه وطريقته وملازمته لـ«شيخه»، منعزلاً قدر

الإمكان عن الدنيا عدا صوت «أم كلثوم» ولعب الشطرنج ومشاهدة الأفلام. كان فريدًا بين المريدين، يسأله شيخه عن أشياء لا يسأل غيره عنها. يسأله عن الأفلام وعن الموسيقى وعن أغان تعجبه، ويطلب منه الدندنة في الجامع في بعض الأوقات، فيغني ويهز الشيخ رأسه مع صوته، في وجد ورضا. يجعله يطير من السعادة والفخر. كان كل شيء يسير في مساره العادي، إلى أن التقى عند عودته إلى البيت في طرف الحارة ليلاً بشاب سكير يترنح، ويسب بفم معوج كل المارة.

تواردت داخله كل الخواطر والأفكار والقواعد الشرعية والفقهية، وغلى الدم في عروقه وهو ينظر إلى ذلك المنكر المتجسد. ذلك الشيطان المتجرئ على الناس وعلى الله، بل على وجوده هو شخصيًا في تلك اللحظة، فرفع يده وصفع السكير الشاب صفعة ارتج لها رأس الرجل وانكمش في ضعف وذلة، وهو ينظر له باحتقار ويواصل الركل والضرب وينادي على المارة أن يشاركوه في عقاب هذا السكير المنحل، وشعر الناس بواجبهم الديني الشرعي تجاه نصرة شيخ على سكير، فانهالوا جميعًا على السكير ضربًا بلا استثناء. ضربه العجوز والشاب والصبي، الكاذب والصادق والفاجر والجاحد والحقود وآكل مال اليتيم والزاني والمتلصص والمتحرش. الجميع يضرب والشيخ حسان يلملم عباءته ويتركهم، بعد أن أدى ما عليه وما أمرته به نفسه الطاهرة من الدنس، المتعالية على كل رجس.

كان يسير بحماس إلى الزاوية والشيخ، وحينما حكى له ما

فعل، لم يبتسم الشيخ ولم يثن عليه، بل أشاح بوجهه عنه وانصرف، لم يفهم حسان رد فعل الشيخ وأكلته الحيرة. استنجد بوجوه المريدين المتحلقين في خشوع وأدب، فلم يجد شيئًا، فقط صمت وأدب وستر لما يفهمون وحسن ظن وتوكل في ما لا يفهمون، ويبدو أن ما حدث كان أقرب في وجوههم ونظرتهم له إلى حسن الظن والتوكل. انصرف الجميع ولم يخرج الشيخ من خلوته، وظل حسان على باب الخلوة ساعات طويلة من العشاء إلى الفجر، ولم يخرج الشيخ.

تحرك إلى باب الزاوية وبدأ يؤذن لصلاة الفجر، رأى الشيطان قصيرًا يقترب منه ويهمس في أذنه:

- تؤذن ليصلي الناس الفجر أم تنادي على شيخك ها؟ ومن شيخك ها؟ شيخك الذي أشاح حينما ضربت سكيرًا، وابتسم حينما غنيت له. أي شيخ وأي شرع؟

أغلق أذنيه بيده أكثر وواصل الأذان في توتر شديد. أقبل الناس فرادى إلى باب الزاوية، وخرج الشيخ للصلاة وصلى إمامًا، وصلى خلفه وجلسوا بعد الصلاة في حلقة الذكر اليومي، وهو عينه معلقة بالشيخ، والشيخ مغمض العينين، انتهى الذكر وغادر الشيخ الزاوية في صمت، وأغلق وحيدًا باب الزاوية وهو يشعر بعذاب يفوق عذاب الجحيم.

في البيت لم تغفل عيناه ولو دقيقة وعاد إلى الزاوية ظهرًا، لن يذهب للأزهر ولا للبيت ولا لأي مكان آخر، فقط سيجلس هنا يصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والشيخ على

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

حاله يخاطب الجميع ولا يخاطبه، ينظر للجميع ولا ينظر إليه. لم يتمالك نفسه بعد العشاء، عند قيام الشيخ وتحركه إلى باب الخلوة جرى خلفه وانكب على قدميه يقبلهما في بكاء مرير. انتبه الشيخ إليه، كأنه يراه للمرة الأولى، ورفعه وهو يربت على كتفه وأمسك ذراعه وتأبطه إلى داخل الخلوة، ومن الذهول نسي حسان أنها المرة الأولى التي يدخل فيها أحد خلوة الشيخ. نسي كل شيء وعينه معلقة بنظرة الشيخ.

كان الشيخ صامتًا، لكن صوته كان خارجًا من نظرته واضحًا جليًا :

- نظرة الله لنا ستر يسترنا عنه بنظرته ويستر عيوبنا عنه بنظرته ومن لم يكن ستارًا حرم النظرة.

شعر بوخز الإبر يسري في جلده «لو جربت ما ذاق ما هان عليك الفراق» كيف استغرقت تلك الكلمات البسيطة كل الوقت من العشاء إلى الفجر «الفجر أذن فالأذان ينادي به الحبيب على الحبيب».

خرج حسان من الزاوية يبحث عن الحانة. أراد أن يقبل رأس السكير ويعتذر له حتى يرضى. كان يعلم أن الحانة في طرف الحارة في «الجيارة» لكنه لا يعلم مواعيدها. وجد بابها مغلقًا فانتظر حتى الظهر. صلى في المسجد القريب من الحانة وعاد إلى بابها يسأل، والغفير العجوز على باب الحانة يتعجب من إصرار «الأزهري» على معرفة مواعيد الحانة. وأخيرًا بعد الانتظار ودخول الليل فتحت الحانة أبوابها، وتوافد السكارى ودخل حسان إليها في وجل وشغف وترقب.

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

وفي آخر ركن في الحانة جلس حسان يتأمل وجوههم بتعاطف للمرة الأولى في حياته. رآهم طيبين بسطاء، يشربون في حزن حتى لو صاحوا في صخب أو ضحكوا بقهقهة أو نهنهوا في بكاء. لم يأت بعد، لا يعرف اسمه حتى يسأل عنه النادل، لكن يتذكر ملامحه جيدًا ويعرف أنه كان خارجًا من تلك الحانة الوحيدة في الحي، والتي تضج كل ليلة بهم. أعينه معلقة بالباب، الزبائن يدخلون زبونًا تلو الآخر، والجملة تمر بجوار أذنه لطيفة واضحة «لو جربت ما ذاق ما هان عليك الفراق». صفق بيديه في همة ونشاط واقترب النادل مبتسما في سخرية من زيه الأزهري.

همس حسان في خجل وارتباك:

- هات واحدة.

يرد النادل في شك وسخرية:

- أي واحدة؟

لم تسعفه خبرته المنعدمة ليحدد، فقال متلعثما:

- واحدة مما يشربون.

زادت ابتسامة النادل من فصاحة الشيخ، وانطلق بشعور غريب شعور تمتزج فيه السعادة بالانتصار، فهو لم يقابل زبونا مثل هذا من قبل، ولم يحضر زجاجة خمر لأزهري من قبل، ما دفعه إلى ملء طبقين كاملين من الترمس والجرجير، وصب من الزجاجة في كأس زرقاء نظيفة، وظل

متكئًا ليشهد لحظة تجرع حسان للكأس.

حمى حسان حسن ظنه وأدبه وحسن تربيته، من ملاحظة تلكؤ النادل، وأمسك الكأس في أدب شديد، فقد تعلم أن يحترم كل نعمة ويتأملها بامتنان قبل التذوق، تعلم أن ينظر إلى لون التفاحة ثم يشمها ثم يبدأ في تذوقها، وكذلك مع كل نعمة يظهرها الله له بفضله.. كذلك فعل مع كأس الخمر، تأملها طويلاً وأعجبه لونها الأزرق وتشممها طويلاً، ومن دون وعي منه، تمتم بالبسملة مع الجرعة الأولى وشرب على ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت مرارة الخمر تحرق حنجرته ويعجز عن التنفس، لكنه يواصل الشراب والتذوق في تصميم وصبر وامتثال، وهو يؤدي مهمة مقدسة لا بد منها، جعلته ينهي الزجاجة في زمن قياسي.

تتسع ابتسامة النادل الذي لم يفارق تقريبًا منضدة حسان، وها هو يضع الزجاجة الجديدة ويصب في الكأس الجديدة ذات اللون الأحمر تلك المرة، وحسان على حاله يمسك الكأس ويتأملها ويشمها ويتجرع على مرات ثلاث، ولكن برأس أثقل، وحنين جارف وتعاطف كبير مع جيرانه السكارى. يتابعهم وهو يشرب بحب كبير. لماذا لا يقف ويقترب منهم واحدًا تلو الآخر ويقبل أياديهم؟

تحول السؤال إلى إجابة، واقترب من أقرب سكير منه وقبل يده معتذرًا باكيًا، ودموعه الحارة تسيل على يد الرجل المذهول المتثاقل عن سحب يده بفعل السكر والارتباك والقلق من دموع وإصرار حسان الذي يعتذر بشكل متواصل:

- آسف يا سيدي.

سحب السكير أخيرًا يده ضاحكًا مرتبكًا:

- والله إنت اللي سيدي وسيد أبي.. اجلس يا مولانا اجلس.. ما يبكيك؟ وعلى ماذا الأسف؟

ينهنه حسان بصدق وهو يجلس والدموع تنهمر منه من دون توقف:

- يبكيني الظلم.. ظلمت الخلق ظلمًا كبيرًا، والظلم ظلمات يوم القيامة.

السكير ينظر في ذهول:

- ظلمت من يا مولانا؟

يهمس حسان:

- ظلمتكم وظلمت نفسي.

عام كامل يمر على حسان في الحانة لم يخرج إلا في أوقات الصلاة، ويعود يشرب ويسمع ويربت على أكتافهم، ويمسح دموعه وينشد بصوت عذب:

لاحتْ على دكّة الخمّار أسرار.. وأشرقت في وجوه القوم أنوار

وطاف بالبيت ساقٍ لا شبيه له.. هذا العقيق وهذا الربع والدار

فاستيقظوا يا سكارى بعد رقدتكم.. واستغنموا الوقت إن الدهر غدّار

من باح بالسرّ كان القتل شيمته.. بين الرجال ولم يُؤخذ له ثار

-٤-

قصة نجاح فاشل

في الحانة يخلع فريد الجاكت باهظ الثمن ذا الماركة العالمية، ويجلس وسط السكارى متحملاً منهم كل شيء. يتحمل تعليقاتهم الساخرة وأسئلتهم الكثيرة السخيفة المتسارعة، ويستطيع أن يجيب بحرية على كل سؤال ويفضفض. يتكلم عن نفاقه ورحلته الطويلة بصراحة مطلقة، ويذكر لهم اللحظات الهامة في تاريخه، التي ذبح فيها كرامته من أجل الحصول على امتيازات يراها الآن حقيرة.

ينصتون إليه في احترام، يزول مع الكؤوس المتتابعة، وترتفع ضحكاتهم وسخريتهم التي يتقبلها كأنما يتطهر. لا ينفعل، فقط يتجرع الخمر الرخيصة ويخرج مع شروق الشمس ليركب سيارته الفارهة، ويعود بها إلى فيلته في الحي الراقي، يتنفس خمرًا وينام بكامل ملابسه كصعلوك إلى منتصف الليل، ويفيق رائقًا مبتسمًا مبتهجًا. تعرف زوجته حاله وتتقبله، وتعرف أنه سيكون في أحسن حالاته تلك الليلة بعكس باقي أيام الأسبوع.

يظهر في اليوم التالي في برنامجه الأسبوعي قويًا واثقًا، يتلقى المكالمات في حيوية ويهاجم كنمر شرس وزيرًا ما، ويمدح كعشيقة شخصية عامة أخرى، ويمدح الثورة ويهجوها

حسب مقتضى الحال، في سخرية لاذعة وخفة ظل تزيد من جماهيريته على الجانبين، جماهيرية المحبين وجماهيرية الكارهين، أو كما يسميها هو «جماهيرية الاحتقار».

تعلم فريد السر منذ أن وطأت أقدامه القاهرة، وعرف أن «طويلة اللسان سيدة جيرانها» ورأى في حارته الأولى كيف كان لـ«أم راوية» شهرة في الشارع، تفوق شهرة وزير البحث العلمي، وتعلم أن النجاح في العاصمة يأتي بالفضائح، تمامًا كما يأتي بالجهد والعرق، والمزج بينهما هو الأمثل، وبقدر احتياج بعض الأمور للحركة والتنظيم والتفكير والإبداع والموهبة، فإن الفضيحة لا تحتاج إلا القدرة على مواجهة الجميع بلا حياء. مواجهة اعتاد عليها فريد منذ سنوات بدأها في «جامعة القاهرة» في أوائل الثمانينات، حين انضم بتلقائية شديدة ومنذ اليوم الأول في الجامعة، إلى «الإخوان المسلمين» وذلك بصلاة فرض الظهر الأول له في الحرم الجامعي.

كانوا هم الأقرب إليه نفسيًا، فهو يحفظ الكثير من القرآن ويحافظ على الصلوات الخمس، وفقير وريفي، وتلك المشتركات جعلته يراهم الأقرب إليه، وتحقق له جزء من الشهرة والأمان بالانتماء إلى مجموعة. ومع أول مظاهرة أدت به إلى الوقوف مطرقًا في مكتب أمن الجامعة، وكل جزء في جسده يرتعش، حاول أن يسيطر على الرعشة بلا فائدة، وظلت يده الأكثر ارتعاشا وهي تكتب أسماء وعناوين كل من عرفهم وصلى معهم.

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

خرج من مكتب الأمن، وعاد إلى غرفته المتواضعة في غياهب حارات الجيزة، وحرق شرائط «الشيخ كشك» وحلق لحيته الصغيرة، وتجاهل صوت الأذان فرضًا تلو فرض، وسهر ليلته محدقًا في الرسومات العجيبة التي رسمها تشقق الحوائط وتساقط الدهان من على السقف. رأى عليها ملائكة وشياطين ورجال أمن وأمًّا محنية الظهر، وأبًا يرفع يديه بالدعاء، وباب حجرة أضعف من طرقات القادم. لم تنجح محاولاته الكثيرة لجعل يده تتوقف عن الارتعاش، ولم يجد إجابة واضحة عن كيف سيذهب للجامعة في اليوم التالي، وكيف سينظر في أعين من كتب أسماءهم بالأمس، وكيف سيمر بجوار مكتب الأمن، وأي كيان جديد عليه الاحتماء به.

وما أن لمح أسامة عند مدخل بوابة الجامعة صباحًا، حتى تعلق بذراعه في حميمية مفاجأة، وأخذ يحدثه عن إعجابه به وبحبه للمسرح والسينما مثله، وحدثه عن عشقه لـ«عبد الناصر» الذي لولاه ما تعلم أمثاله. استراح أسامة «الناصري» المسؤول عن فرقة المسرح والمحب للسينما، لكلام فريد وإطرائه. كان فلاحًا أيضًا لكنه أكثر ثراء وله أقارب من الضباط يجعلون له مكانة مميزة، فضلاً عن وسامته وقدرته على صياغة الشعارات والتحدث بوجهات نظر غيره باقتناع وتبنٍّ، كأنها وجهة نظره هو.

في المسافة من بوابة الجامعة إلى باب المدرج، الذي تتدرب فيه الفرقة المسرحية على مسرحية لـ«عبد الله ونوس»، كان فريد قد نجح في ملء إناء غرور أسامة إلى آخره، ولم تتخل ذراع فريد عن التعلق بذراع أسامة للحظة.

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

وقبل أن يدلف فريد إلى المدرج، لمحه أحد أصدقاء الأمس، صاحب اللحية الأطول في الجامعة، ونادى عليه بحدة وتحذير، لكنه تجاهله تماما ودخل بصحبة ذراع أسامة إلى العالم السحري، حيث الطلبة والطالبات يضحكون في حرية. وقف مترددًا مبتسمًا مرتبكًا وقال:

- لا أجيد التمثيل بالطبع لكنني أستطيع أن...

لم يكمل. فأسامة الذي يحتاج إلى خفير يزيد من وجاهة منصبه كعمدة بين أقرانه، أكمل هو:

- فريد هو المساعد لي.. فريد عقلية جيدة.

-٥-

أحزان نينوى

تـزوج عبـد الله العـراقي بفواكـه، وعـاش معهـا في الإسـطبل، وأنجبـا ولديـن وبنتًـا. يهـرب كل ليلـة مـن طلبـات زوجتـه إلى الحانـة. يبتسـم بـواب الحانـة في صمـت وتفهـم، ويـأتي صـوت أيـوب مـن المنضـدة الملاصقـة. صـوت مبحـوح مـتردد كأنـه يتكلـم مـن وراء نفسـه، سـاخرًا مـن حكايـة عبـد الله:

- يـا للسـكر ومـا يفعـل بالبـني آدمـين.. يجعـل بغداديًـا يـأتي سـباحةً مـن نهـر الفـرات إلى نهـر النيـل في غمضـة عـين.. أنـا أيضًـا جـدي مـن غـزة.. أتى سيرًا مـن غـزة إلى سـيناء، وأنـا فضلـة خـير ابنـه التاجـر في الموسـكي.

هكـذا كان ظهـور عبـد الله العـراقي باعثًـا عـلى ظهـور علامـات التعجـب مـن جديـد، لـدى كل وافـد يسـمع همسًـا بقصتـه مـن أحـد القدامـى، وينصـت الجميـع إلى شرح الدكتـور صالحـين يمامـة.

والدكتـور صالحـين يمامـة، طبيـب الأمـراض النفسـية صديـق الكتـاب والشـعراء والروائيـين والفنانـين التشـكيليين، والقـارئ

للروايات الجديدة المترجمة فور صدورها. في إحدى حواراته الفلسفية العميقة عند السكر، وتحديدًا بعد الكأس الثالثة، حاول تفسير كل ما هو غير مفهوم كعادته، وأن يزيل اللبس الذي يملأ أعين الفنجري الذي كلما التقت أعينه بأعين عبد الله العراقي. يبتسم وينظر للفنجرى مفسرًا:

- هي ليست مسألة أن يأتي شخصٌ سباحةً بالتأكيد من الفرات إلى نهر النيل، لكنه شيء آخر، هو حيوات تكتمل وأنا هنا.. لا أقصد الاستنساخ بالطبع، فالفكرة أبعد من ذلك، بإمكانك مثلاً أن تسميها تبادلات الحياة المؤقتة، بأن تحل روح أحدهم ضيفة في روح آخر بالتبادل لفترة مؤقتة، بسبب حادث طارئ، يغيب أحدهم عن الوعي ليحل آخر محله.. رجل مصري في القاهرة ذات ظهيرة في حي شعبي، يقع من على سقالة في الدور الثالث على رأسه مباشرة، ويروح في غيبوبة تستمر ستًا وثلاثين ساعة.. وسيدة سويسرية في ذات التوقيت وقبل بلوغها قمة الجبل الذي تتسلقه، في لحظتها تخونها قدمها وتسقط بين الحياة والموت في غيبوبة تستمر لثلاث سنوات، وطفل هندي تدهسه سيارة مسرعة في شوارع «دلهي» ويغيب أسبوعًا عن الوعي، وهكذا حالات متكررة يوميًا في أنحاء شتى على الكرة الأرضية، لتكون خبرًا في ذيل نشرات الأخبار على الشاشة أو داخل صفحة الحوادث. لكن المؤكد في النهاية أنه ليس ثمة كوب يتم إفراغه من دون أن يمتلئ مرة أخرى من كوب آخر، في توازن تلقائي وميكانيكي ومتوازن، ومن هنا كان على الأكواب المتبادلة أن تلتقي يومًا.

حل الصمت المؤدب على الحانة للحظات بعد حديث الدكتور صالحين، صاحب الصوت المنمق، وصفق «إبراهيم الباز» لحسان مبتهجا فجأة:

- زجاجة براندي يا حسان، لأن كلام الدكتور صالحين أصابني بارتجاج في المخ، وزغللة في العين فربما أنا الآن على حسب كلامه، بواقي لاعبة جمباز، من أولئك الفتيات اللواتي يتقلبن على الحلبة في التليفزيون، كسمكة في مقلاة الزيت. سمكة بلا شوك انزلقت وأغشي عليها وحلت روحها في روحي، وتريد الآن أن تقفز، فأشرب حتى أغرقها وتظل بالداخل. الدكتور صالحين أصابني بلوثة.

قهقهة خشنة وإيقاع صاخب لحذاء ميري ثقيل، ودخان سيجارة من فم يحمل أسنانًا مكسورة، ووجه طيب عند السكر قاسٍ عند القبض على رقبة مطلوب. هو مخبر في قسم مصر القديمة يأتي دومًا بعد الفجر. يصفق بيد خشنة وفم مفتوح:

- افتح يا حسان.. يا حانة بلا صاحب.. كل زبون يحمل كذبة.. آه يا بلد بناها سكير ونسيها.. فلتغلق مؤتمر القمة هذا يا حسان.. كل الدول العربية عندك يا موكوس.. أغلق وأحضر رخصك.

يفهم حسان المخبر تمامًا، فيمسح سطح الكرسي ويحضر كأسين:

- ها هي زجاجتك يا فنجري.. تشرب وتريح الأقدام

المتعبة من اللف خلف السارق والقاتل وتحكي وتسمع.

ارتاحت قدماه بالفعل، وأحس بنارٍ عند الظهر. آلام تهاجمه منذ فترة طويلة. أعجبه إطراء البواب وشعر بأهمية وضعه وحساسية مركزه، وانسجم بالمبالغة وطعم الخمر وهو يتأمل باستغراب أكبر عبد الله السكران.

هدأت حالة الفنجري، مع تجرعه للكؤوس المتوالية، في محاولة لفهم كلام الدكتور صالحين، الذي بدا أصعب من لغز عبد الله العراقي، فقرر أن يريح رأسه من مهمة التفكير برمتها، خاصة وأنه نسي عبد الله العراقي الذي استغل شروده وصمت الحانة، وانزوى في ركن في الحانة وأخرج من جيبه الناي وشرع في العزف الحزين، هكذا كانت صنعته بالحانة التي ظل يعمل بها عشر سنوات، عازفًا بالناي مقطوعات حارة حزينة تخرج من أنفاسه، يستريح بعدها ويركن الناي ويستعد للإجابة على سؤال سكير يمسح دموعه:

- ما هذا اللحن يا عبد الله؟

فيرد شاردًا:

- إنها مقطوعة تسمى «أحزان نينوى».

-٦-

محنة حسان

بدموع تنهمر على طرف عباءة الشيخ، وشوق صادق تجلى في زفرات متتابعة من حسان، بعد عام كامل من الحرمان من رؤية الشيخ، قال:

- عام كامل يا مولاي قضيته بعيدًا عن حضرتك، وأكثر شيء يؤلمني ويكاد يذهب بالعقل ولا يجبرني على النطق به إلا الصدق أنه... أنه...

وصمت حسان في أدب خشية أن يكمل ويقول كلامًا لا يليق، ولكن الشيخ الطيب شجعه بابتسامة جميلة جعلته يصر على الصدق ويكمل:

- عام كامل هو الأجمل في أعوام العمر. شربت خمرًا يكفي لإرواء فيل، ولم يتطرق الندم إلى قلبي ولو للحظة، يبدو أن القلب فسد.. عام كامل يا مولانا أشرب يوميًا بتلذذ واستمتاع، وأجالس السكارى، أشعر أنهم إخواني، بل أقرب.. يحدثونني عن أطفالهم وزوجاتهم وأموالهم وأحزانهم، وأحلام ضاعت وأحلام قد تأتي، ويبكون ويضحكون بصدق وأنا أحدثهم عن «الطريق والبلاء» وعن «الشيخ والمريد» وأذكر أشعارًا لابن الفارض والحلاج وسيدي محيي الدين،

ومقاطع كاملة من «إحياء علوم الدين» ومن «الرسالة القشيرية»، ويستمعون لي في صبر وأدب وعدم فهم. كنت في الشهور الأولى أفيق مع صوت الأذان، وأخرج من الحانة للمسجد وأصلي وأعود، ولكن حينما أحببت الخمر وذقت المذاق لم أتركها. عام كامل يا مولاي حتى رأيتك في حلم الأمس تنادي عليّ وأنا أهرب منك، من أجل أن أمضمض فمي من طعم الخمر ورائحته. هل فسد القلب؟

ابتسم الشيخ وربت على الكتف، والتقت أعينه بشمس العصر على باب الزاوية، فأضاء الضوء وغمر حسان. ومسح الشيخ رأس حسان وقال:

- كُن حيث وجدت قلبك.. شجر الوقت يثمر ذكريات لم تنضج بعد.

اتسعت عينا حسان في دهشة تحولت إلى رعب وألم:

- أي اختبار هذا يا مولاي؟ أي بلاء لا يتحمله العقل؟ أأقضي باقي عمري في الحانة؟ أم أنك تدخلني في دائرة المكر؟

كرر الشيخ الجملة ولم تبرح ابتسامته وجهه بعد:

- كن حيث وجدت قلبك.

في تلك اللحظة خرج حسان من الزاوية، كأنه فقد ثلثي وزنه. كان خفيفًا تتقاذفه أهواء الشك والحيرة. شك في كل شيء، في نفسه وفي الزاوية وفي الشيخ وفي الحانة وفي حياته.

-٧-

فضفضة

انضم فريد إلى جماعة جديدة وصار تابعًا مخلصًا لأسامة، الذي فتح أمامه عالمًا أكثر سحرًا من مسرح الجامعة، وهو عالم وسط البلد.. وسط العاصمة، حيث طاف على المقاهي، وأدرك أن البنات يجلسن فيها ويسهرن ويطلقن الضحكات ويدخن السجائر والشيشة، ويتهامسن عن قرب ويتبادل بعضهن القبلات عند اللقاء والوداع مع الشباب.

وقضى فريد آخر ليلته الأولى في حانة حسان، وتذوق طعم الخمر الرخيص، ولم ينس في هذا العالم الجديد أن يحافظ على مهنته الجديدة بدقة، وهي الإطراء والمديح الدائم للعمدة أسامة. وتمر السنوات ويتخرج الصديقان وقد صارا أكثر تمرسًا وخبرة بالحياة، فالتصق أسامة بالمخرج الكبير بعد أن نظم له في أكبر قاعة بالجامعة حفلاً، جمع له أكثر من خمسة آلاف طالب في يوم مشهود، وبكى في حضنه وهو يحكي له عن عشقه للسينما، وعلق ذراعه به ولم يتركه حتى أجلس المخرج الذي امتلأ بالمدح على كرسي مكتبه في الشركة. وعمل فريد في جريدة جديدة كانت هي الأولى التي حصلت على ترخيص جريدة مستقلة، بعيدًا عن جرائد الأحزاب والجرائد القومية.

وبدأ رحلته الطويلة، تلك الرحلة التي ظل حريصًا فيها على الذهاب إلى حانته الأولى، حانة حسان، كشاهد على كل خطوة خطاها ودفع ثمنها مقدمًا. استطاع العبور على الكثير من الفضائح، وبذل الكثير من الجهد والعرق والنفاق، لكنه فشل في تجاوز شيئين لا ثالث لهما في حياته المشحونة.

لم يستطع تجاوز ذهابه الأسبوعي إلى الحانة، ولم يتجاوز أيضًا أحزانه وشروده عند مروره بسيارته، قرب مسجد يرتفع منه صوت الأذان، وتنفتح أبوابه للمصلين المسرعين تتساقط من وجوههم وأيديهم قطرات الوضوء. لم يكن شروده الحزين ذلك منبعه التقوى أو الندم وشدة الإيمان، ولكنه كان حزنًا من ذلك النوع الذي يصاحب من اعتاد على شيء في الصغر ثم انقطع عنه. وظل فريد عند كل انتصار ظاهري وهزيمة باطنية يأتي إلى حانة حسان، ويطيل الشرود ويفيق على صوت سيدة الغناء يملأ فراغ الحانة «وإيه يفيد الزمن للي عاش في الخيال؟» خلفية لحديث فريد خير الدين، على الرغم من اقترابه من عامه الخمسين، بعد رحلة طويلة في الإعلام والصحافة وصل فيها إلى الشهرة الواسعة والنجاح، كواحد من أشهر مقدمي البرامج السياسية في الوطن.

رحلة طويلة مرهقة شاقة أراق فيها الكثير من ماء الوجه، وأرهق روحه طويلاً في طريق النفاق، والنفاق متعب لا شك ويظهر أثره على الوجه، ويصنع العديد من التجعيدات الخاصة تحت الأعين وعلى جنبات الفم، ويجعل النفاق أيضًا الأنف عند الشرود يبدو قبيحًا، كأنه أطول قليلاً من طوله الحقيقي، خاصة في ذلك النوع من الرجال ذوي

الأصول الريفية، الذين أتوا من أب فقير صالح وأم أمية ومن قرية عديمة الخدمات.

كانت تلك هي كل الأسباب الدرامية التقليدية المتعارف عليها والمستهلكة، في صنع شخصية كشخصية الأستاذ فريد خير الدين، ولكن ظل فريد يتميز بأصالة ما تجعله -رغم الشهرة والمال- حريصًا على الذهاب أسبوعيًا إلى حانة حسان. تلك الحانة التي لا تليق بوضعه الحالي، لكنها تليق بأحزانه. هناك يستطيع أن يجلد ذاته ويفضفض بلا حسابات.

للكتب الحصرية ← www.sa7eralkutub.com
للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

-٨-

وللفنجري قلب

سأل إبراهيم الباز موجها كلامه لعبد الله العراقي في دهشة:

- وما هي نينوى تلك يا عراقي؟ هل هو صوت القطة؟

رد عبد الله في شجن بلا غضب:

- نينوى هي مسقط رأس زوجتي زينب، وأبوها عازف للناي، أحببت ابنته زينب على صوت أنفاسه، كانت ألحانه تبكيني كل ليلة من ليالي الأسبوع الذي قضيته في نينوى في تجارة لأبي.. جلست إلى جوار داره مسحورا باكيا مع عزفه الحزين، تماما كما سحرت عند دخولي المدينة. نينوى أجمل مدن الدنيا. نينوى الآشورية مدينة الأساطير والمخلوقات العجيبة. في مدخلها نحت عجيب لكائن خرافي بوجه إنسان وجسد ثور، وجلد سمكة وذيل أسد وأجنحة محلقة لنسر ضخم، وإيماءة منه تفتح البوابة الكبيرة لأدخل إلى مدينة الحكايات نينوى. قلت له علمني الناي يا عماه، فقال لا يبدو عليك أنك من نينوى، ولا حتى الموصل، فقلت له:

- بل من بغداد أتيت للتجارة.

ابتسم وقال:

- بغداد عاصمة الدنيا، وماذا تعرف عن موسيقى نينوى يا بغدادي.

أجبته بالصمت وعرفت من إجابته أنه أحد عشاق الموسيقى ومثقفيها. اتكأ كشيخ عجوز وقال:

- موسيقى نينوى تتركب من كلمتين فارسيتين متقاطعتين مع اللغة العربية شكلا ومضمونا، «ني» تعني باللغة العربية الناي و«نوى» تعني مقام النوى «الحجاز كرد» أحد مقامات الموسيقى المعروفة، أي إن نينوى تعني عزف ناي على مقام النوى.

فقاطعته بارتباك وتقدير واحترام:

- وما هذه المقطوعة العجيبة التي تعزفها كل ليلة وتجعلني أبكي؟

قال بتلقائية وبساطة العالم مع خروج زينب علينا بكاسات الشاي فصارت أذني معه، وعيناي مع وجهها الهادئ المطمئن كناي أبيها المستند على الحائط:

- هي مقطوعة من تأليف موسيقيّ آشوري من القرن السابع قبل الميلاد، عثر عليها مدونة على ألواح طينية بين خرائب، بعد فك شيفرة النوتة وعزفها، إذ قامت الفرقة السيمفونية الفرنسية بعزفها على آلات شرقية وغربية، تمازج فيها عزف الكمان مع الناي الحزين، الذي يسحر بنغماته الرقيقة الحزينة كل من يسمعه.

زمجر العجوز لزينب المنصتة للحكاية:

- ضعي الشاي وادخلي يا زينب.

وامتثلت زينب واختفت فعدت لمتابعته والنظر لوجهه:

- أنجبتها على كبر كأني جدها.. أليس كذلك يا بغدادي؟

لم أرد وكانت عيناي معلقتان بالناي.. فابتسم:

- هل تحب أن تتعلم؟

أومأت بالإيجاب في سعادة وهتفت:

- نعم.

فابتسم وهو يمسك بالناي ويقربه من فمه، ثم تراجع عن العزف وقال:

- لا تتعلم قبل أن تعرف قصة اللحن الحزين.

وتعلمت العزف منه في مدة سبع سنوات، كان في كل مرة يحكي القصة قبل العزف، بعد أن تضع زينب الشاي وتدخل. وحينما طلبت منه يد زينب، بكى وقال:

- لا أطيق فراقها، ولا أقدر على الذهاب إلى بغداد كثيرا في سني هذه.

فوعدته أن نزوره مرة كل شهر، فطلب مني أن أعزف له المقطوعة كمهر لزينب، بشرط أن أعزفها أمام جميع شيوخ

نينوى، ويحكمون هل عزفتها أنا أفضل أم هو؟ وكان يوما مشهودا عزفت فيه المقطوعة بأنفاس لا أظن أنها ستخرج من صدري مرة أخرى، وكان بكاء الأب حارًا، والشيوخ ينهنهون بصوت عال بالبكاء والتأثر، وتزوجت زينب ودخلت بها في نينوى، وطلبت مني ليلتها أن أحكي لها قصة هذا اللحن الحزين، الذي طالما حرمه أبوها من سماعه، فابتسمت لوجهها الهادئ، وشرعت في الحكي وأنا أشعر أنني ملك لا زوال لملكه، وهي تستمع بعينين دامعتين لصوتي المتهدج، الحاكي عن قصة حب كبيرة جرت في العصور القديمة، بين فتاة ورجل فقير ذي علم واطلاع واسعين، وأراد الملك الزواج بهذه الفتاة وتم إجبارها عليه، وإبعاد حبيبها عنها ونفيه إلى غابة، حيث عاش وحيدا متروكا بلا زاد، فعاش حياته كلها بالحزن والأسى والألم على فقدان محبوبته، وفي هذه الأوقات كتب نوتات موسيقاه على ألواح من حجر، ووصلت هذه الأحجار إلى أيدي العلماء الألمان في القرن العشرين، ففكوا شيفرة الموسيقى ولحنوها، وأصيبوا بالدهشة لدى سماعها، لما فيها من سحر لم يستطيعوا كشف سره.

احتضنتني زينب بقوة وقالت:

- أنا أكره الفراق يا عبد الله.

وشاءت الأقدار أن نفترق. ساد الصمت على الحانة وحاول الفتجري أن يتماسك وأن يقف من دون أن يهتز من أثر السكر، واتجه لباب الحانة وهو يحذر حسان تحذيره المعتاد:

- حاول أن... في المرة القادمة... ها.

لا تستقيم الجملة فيحدج عبد الله العراقي بنظرة غاضبة. لا يتذكر في حينها الفنجري سر غضبه من عازف الناي، لكنه يخرج مرتبكا وغاضبا ويترك الحانة لزبائنها المعتادين، وهو يسب في سره الفراق والناي وذلك الرجل الغريب.

-٩-

حال حسان

كيف يعرف الإنسان أن تلك الشجرة تسمى «شجرة» من دون أن تكون قد نبتت قبل ذلك في روحه، وسألها عن اسمها وأجابت، هكذا علم ربي «آدم» الأسماء داخله أولًا، أنبتها في روحه، أحياها داخله قديمًا، وحتى نحن بعد كل هذه السنين والمعارف، نعرف فقط أن اسمها شجرة، لكن لا ندرك معنى الشجرة إلا إذا نبتت داخلنا.

كانت تلك الجمل هي آخر إشراقات شيخه عليه في المنام، قبل أن يضع بلحة عجوة في فمه ليسكته ولا يرد، فاستيقظ على حلاوتها في فمه. منذ تلك الرؤيا بدأ حسان يستشعر تبدلاً في أحواله، بدأ لا يشرب الخمر، واكتحلت عيناه بحنان أكبر، وأصبح السكارى يأوون إليه ويسمعونه، ولاحظ أن أحوالهم تتبدل بالكلام معه والنظر إليه، وبدأ بعضهم يقلع عن الشرب بالفعل.

أي كرامة تلك يا حسان؟ أكرامة في الخمارة يا رجل؟ وهل يخلو مكان على ظهر الأرض من فضل الله؟ شعر بأن قلبه يثمر في الحانة، وظل ينتظر السكارى الجدد ويعتني بهم، لم يكن السكارى يشبهون بعضهم، فلكل واحد منهم قصة وحكاية، منهم من أقلع بعد زيارتين لحانة حسان، ومنهم

من أقلع بعد شهر، ومنهم من ظل على حاله سنوات كفريد الصحفي وعبد الله العراقي والبرديسي الصعيدي والشاب إبراهيم الباز.

لكنه عاهد نفسه ألا يفرق بين أحد منهم، فليقلع بعد يوم أو بعد ألف سنة، ما دام دخل تلك الحانة فهو مسؤول عنه، ولا بد له من أن يعامل الكل بأحسن أخلاق ممكنة. كل شيء داخل الحانة يستطيعه حسان. يستطيع أن يتحكم في نفسه وأحواله وأن يتحمل السكارى ويقترب منهم ويحاول بأدب ولا ييأس. لكنه كان يصاب بساعات من القبض والتكدير، لا يتحمل فيها نفسه ولا حتى غيره. تمسك فيه الدنيا في ذلك اليوم من تلابيبه، وتضيق عليه الخناق إلى أبعد حد، حتى إنه تمر عليه لحظات لا يستطيع الحركة فيها. كان يدرك تلك الحال من فجر ذلك اليوم ولا يفتح يومها الحانة، بل يظل مستسلما لقدر الله. تحاصره الشهوات والأحزان، ويحدق به اليأس ويصعد به جبالاً ويهوي به إلى قيعانها في حركات فجائية قاتلة، وتنطلق الأسئلة الملتهبة تكويه كيًا:

- ماذا تفعل هنا؟

ويعلو صراخه داخل الحانة المغلقة الخالية إلا منه وزجاجات الخمر:

- أي حديقة تلك داخل روحك تدعيها؟ لا أعمدة في الشارع تضيء، لا غطاء يقي من وخز الألم، لا مناص من التأنيب والعتاب، ولا جسد يتحمل الهدم، فأي حديقة تلك التي

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

تدعيها وروحك تطل على شفا جرف؟

يفتح الحانة ويجري لمسافات طويلة ويستقر مهزومًا بين المقابر، وهو يتمتم:

- أضعت عمرك يا حسان بلا زوجة ولا ولد ولا حتى يقين، ذهب العالم الجليل وحل محله ساقي الخمور الوضيع.

ويروح في غيبوبة أو إغماءة قد تطول أو تقصر، لكنها طالت تلك الليلة، وأفاق ليجد صوت أنين يصدر من قبر ليس بعيدا. وقف شعر رأسه ونشف الدم في عروقه وهو يستمع إلى صوت القبر المفتوح. صوت رقيق عذب يدندن بشجن، فيزيد حسان رعبًا: ما لي سوى الروح خذها والروح جهد المقل.

يغمض عينيه بقوة حتى لا يرى ذلك الخارج من القبر، لكن الصوت يقترب، ويد تلمس كتف حسان المتوتر. يد حنونة. يفتح عينيه ليجد نحيفًا بشعر رجل مجعد وعمر قارب على الستين، لكنه شديد الفتوة شديد القوة:

- ما بالك تبكي الدنيا وتندم يا هذا؟ هل وشي بك أحدهم أنك تجدف؟ أم أنك ضقت ذرعًا وصرخت بما في الجبة من سر؟

فتح فمه وصرخ:

- وهل دفنت هنا يا سيدي؟ وهل مت حتى أدفن؟

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب

facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

- وهل ما زلت تقول هنا وهناك يا حسان؟ ألم تصدق قصة عبد الله العراقي العابر من الفرات نومًا إلى النيل؟ والآن لا تصدق «غياث الدين الحسين بن منصور»؟ هيا بنا.

وأمسك بيده حسان، فاختلج جسده بماس كهربي. ابتسم «الحلاج»:

- لدينا موعد، هل تركب أقدامك أم تركب بصرك؟

ارتبك حسان وهمس:

- وهل يُركب البصر؟

انظر حيث تريد وبمد بصرك تكون هناك.. القبر ذو الشاهد هذا.. تلك الشجرة..

فكان بيننا السفر بالنظر.

وكان كلما أشار إلى نقطة وصلناها. حتى صرنا في ساحة خالية ممتدة، تتوسطها شجرة جلس تحتها «الحلاج»، وأشار لي بالصمت وأخذ يناجي من لم أره، ودموعه تنسكب، ومع كل حرف من حروفها يقبل طائر أبيض ويقف منصتًا على الشجرة، ويطرق بمنقاره في أدب وسماع، وأقبلت قطط وغزالات وأفيال وثعالب وكائنات شتى، تسمع وتطرق والرجل يحدق في حبيبه الذي لا يراه حسان، ويقول:

- يا سيدي أنا بحر محشور في قارورة بفم ضيق.. ولا صبر.. قبل الصليب رأيتك وبعد الصليب رأيتك والشوق

بـزداد، فمـتى أراك... أراك؟ يـا بـواب الحانـة؟

ارتعد حسان من النداء ونظر في صمت:

- ادع معـي للسـادة الأجـلاء أصحـاب الفضـل التـام، مـن أمروا بقتلي ومـن نفـذوا الأمـر، أن يرزقهـم سـعادة وخـيرًا ونـورًا، قـل آمين.

والتفـت فلـم يجـد الرجـل. لـم يعتـد حسـان عـلى السـير ببـصره بعـد، فنظـر إلى البعـد.

وإذا بـه في جمـع يتوسـطه شـيخ جميـل الطلعـة يلقي الأشـعار، ويتمايـل الحضـور طربًـا ويطـير بعضهـم في الهـواء مـن الوجـد، ويسـقط البعـض وصرخ الرجـل بصـوت حنون:

- شربنـا عـلى ذكـر الحبيـب مدامـة.. سـكرنا بهـا مـن قبـل أن يخلـق الكـرم.

فخرجـت الأشـعار بسـاطًا طـار بـه الحـلاج مخترقًـا سـبع سـماوات، وأتى مـن سـماء الـشرق رجـل وضيء يهبـط مـن السـماء راقصًـا، وهـو يـدور في حركـة عجيبـة. يـد ترتفـع للسـماء وأخـرى تشـير لـلأرض، ودوران دائـم. ثـم عنـد الاقـتراب مـن الأرض انقسـم إلى رجلـين يرقصـان معًـا في بهـاء وجمـال. وهمـس الواقفـون:

- إنهما العاشقان «جلال الدين» و«شمس الدين»لا يفترقان.

صمـت الرجـل عـن الإنشـاد وحلـت الموسـيقى وأقبـل نحـوي

مبتسمًا وهو يشير إليهما ويبتسم لي:

- أنا نقشت العشق شعرًا وهما صاغاه روحًا حية ما أجملهما.

أقبل البعض يقبل يد الرجل هامسين باسمه «سيدي بن الفارض». وحسان يتابع في ذهول. وأقبل من السماء رجل نحيف أسمر كأنه يهبط سلمًا بهمة، وجلس في تواضع والتف حوله خلق كثير، وطلبوا منه شرح كتاب «فصوص الحكم» فكان يهمس وتلميذه «صدر الدين القوني» يشرح بصوت عال، يقول سيدي محيي الدين بن عربي كذا.

وانفتحت أمام حسان أبواب في السماء، وهبطت مراكب عجيبة تحمل الأقطاب الأربعة، كل قطب محاط بنوره وأوراده ومريديه، وحسان مدهوش يتابع، والأرض أمامه تتسع لاستقبال أنوار الهابطين. كان السيد أحمد البدوي ملثمًا وعيناه خلف اللثام قويتان تضيئان لمريديه مددًا طويلاً، وكان السيد إبراهيم الدسوقي شابا ثلاثينيًا بهيًا يحلق في مركب تحيطه موجات من نور، لا تفارقه في سماء أو أرض، بينما جلس السيد أحمد الرفاعي مطرقًا في صمت وحوله مريدوه يفترشون الأرض بنوره، وهو يتحدث هامسًا في الأحاديث النبوية، والنور يخرج من بين شفتيه، بينما كان السيد عبد الرحيم القنائي بعمامة مميزة، يتناقش بجدية في أمر هام، ويقف أتباعه على أقدامهم يتابعون، وكلما حرك يده نحو أحدهم أضاء.

وقف حسان على مسافة يتابع، ولمح رجلاً شديد الأناقة

بهي الطلعة، ملابسه فاخرة ومنسقة، وخلفه رجال مثله مسرعين، فهتف من إلى جواره:

- إنه السيد أبو الحسن الشاذلي وهذا المرسي أبو العباس وهذا ابن عطاء الله السكندري وهذا ياقوت العرش.. انظر هناك هذا هو السيد أبو مدين وهذا السيد عبد العزيز الدباغ.. وهذا وهذا وهذا وهذا، وحسان مفتوح الفم ذاهل العينين، والصوت يسرد أسماء لا يعرفها...

ثم رأى الأئمة الأربعة، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد ابن حنبل يقبلون على أقدامهم مبتسمين، ويصافحون الأقطاب الأربعة ويندمجون، فيصبح الثمانية أربعة، ويحيط بكل واحد منهم لون، فيحيط أحدهم لون أخضر والثاني أزرق والثالث أبيض والرابع أرجواني، وتتداخل ألوانهم ويعم المكان ضوء صاف، خليط من الألوان الأربعة، وحسان بمفرده وسط الضوء الذي أبهر عينيه، فأغمضهما وجلس خشية أن يهلك أو يصعق، وظل يسترق السمع...

وحينما حل الصمت فتح عينيه في ظلام مطبق وقبور صامتة، نفض ترابه وقام مرتبكًا واستمع في خوف لوقع أقدام منتظم قادم من بعيد، يصحبه وقع عكاز غليظ يعين القدمين، اقتربت ليجدها عجوزًا فانية عمياء، تدق الأرض بعكازها وتهدر كالجمل وتدمدم كلمات وضحت في أذن حسان بالتدريج:

- «يا ساكني القبور.. أعلمتم أن الإنسان لحم ودم ونور؟»،

وتكررها.

وحينما مرت بجوار حسان وقفت وكأنها تراه وقالت:

- يا بواب الحانة، الإنسان لحم ودم ونور، يفنى اللحم والدم ويبقى النور.

ثم رفعت عكازها لأعلى وهوت به فوق رأس حسان، فصرخ في الحانة الفارغة:

- أستغفر الله العظيم.

-١٠-

العاصمة

لم يكن البرديسي عنيفًا على طول الخط، لكن كورنيش المعادي والجرائد التي تسبق يومها وفيلم «شباب امرأة»، تواطأت جميعًا عليه ودفعته دفعًا من الصعيد إلى العاصمة. يتذكر ضاحكًا فيهتز كرشه الضخم، فيدفع الترابيزة الملتصقة به وتهتز الكؤوس والزجاجات.

ضحكة البرديسي تهز كل شيء، ويواصل وهو يمسح دموعه من الضحك:

- لم يكن هناك كرش، ولم تكن الأسنان قد سقطت، ولا قدم تتألم من الأملاح.. كنت شابًا نحيفًا يحلم بالعاصمة.. لم أر القطارات إلا في الأفلام تودع النجوم وتستقبلهم، أو يهبط منها البطل في آخر الفيلم ليلحق بحبيبته الباكية اليائسة، قبل أن تغادر الرصيف، ويمنحها عناقًا يجعل المحطة جنة، وحينما كان يأتي عمي الذي يسكن القاهرة ليزورنا، أسهر إلى جواره أسمع حكاياته عنها مسحورًا، كأني أسمع حكايات خيالية عن الجن.. بلاد مليئة بالأنوار والنساء الجميلات تسهر للصباح، والمقاهي في كل مكان، يبدأون يومهم داعين لك بـ«النهار القشطة»، ويختمون ليلهم بتمني «الليل الفل».

النيل محاط بشاطئ جميل يمتد من شبرا الخيمة إلى حلوان، والعشاق يزينونه، يختلسون القبلات وأعينهم معلقه بالمراكب الملونة. الجرائد في العاصمة تستطيع أن تقرأها ليلاً قبل أن يأتي اليوم التالي.. أ

سأله بسذاجة:

- كيف؟

يرد في فخر كأنه هو صحاب الجرائد:

- تستطيع أن تقرأ مثلا «جريدة الأهرام» التي تصدر صبيحة السبت في آخر ليل الجمعة في الطبعة الأولى.

والإعلانات هناك في كل مكان. صور مضاءة وملونة لنجوم السينما والغناء والمطاعم الشهيرة، وهناك المطار والمحلات الضخمة، وهناك «سيدنا الحسين» و«السيدة زينب». كل شيء في العاصمة. كنت أختلس النظر إلى عمي وأراه رغم ما يسرده عليّ من سحر العاصمة قد صار أكبر سنًا من أبي، رغم أنه أصغر. وأسنانه غاب منها الكثير، وكرشه امتد أمامه بشكل ملحوظ، وآلام الأقدام تلاحقه عند الوقوف والحركة.

لكن ابتسامته التي تتحول إلى ضحكات، يهتز لها مع كرشه أريكة غرفة الضيوف تحت نور اللمبة، جعلتني أصدق قصص العاصمة حتى وصلت إلى المخروبة...

وعلمت أن العاصمة أكذوبة، عجوز شمطاء تقتات على

مواهب القادمين إليها ودمائهم، حتى لهجتها المتعالية المعوجة التي تتلقى الغرباء بها، ليس صنيعتها. عاصمة هشه نجومها ليسوا منها، مجدها مصنوع بأصوات فلاحين فقراء ويتامى، وموسيقاها من صنع إسكندارنية موهوبين طردهم البحر، ومبانيها وعماراتها على أكتاف صعايدة، حتى السينما ذات البريق والتاريخ نجومها من محافظات قريبة أو من بلاد الشام. أي عاصمة تلك التي لا تملك ذاكرة قريبة؟

غولة تجلس أمام بيتها يمر بها الغرباء، فتسألهم في أمومة مزيفة:

- ألا تدخلون عندي للراحة؟

فإن دخلوا كان خلف الباب بئر عاشت هي على جثث من فيها، وإن عبروا وأكملوا الحياة طالبتهم بباروكة شعر وطاقم أسنان وثياب جديدة.

وقالت على الفلاحة «أم كلثوم» إنها ابنتي «كوكب الشرق»، ونسبت اليتيم الهارب «عبد الحليم حافظ» إليها وأسمته «العندليب»، وطاردت «أحمد زكي» من مكان إلى مكان حتى أسكنته الفنادق قبل القبر، ثم قالت: هو «فتى شاشتي الأسمر» وقتلت «يحيى الطاهر عبد الله» في حادث طريق وأنهكت جسد «أمل دنقل» بالمرض، وأكلت غيرهم على المقاهي الرخيصة والبارات، ورقصت مع غيرهم وغنت، ثم دفعتهم على حين غرة إلى الضياع. ملعون أبوها العاصمة التي لم أنم فيها ليلة واحدة نومًا هنيا، كذلك الذي نمته في حجر أمي.

ضحك السامعان عبد الله العراقي وإبراهيم الباز. زال عن الأخير التأثر، وتذكر أنه سمع الحكاية قبل ذلك ألف مرة، فهز رأسه في دهشة:

- تتكلم كأنك ناقد أو فنان معتزل.. مالك أنت بالكلام الكبير وأنت «حيالله» مقاول أنفار لا تفهم إلا في القصعة والمونة؟

أشاح البرديسي بيده واحمر وجهه وقضب جبنيه في ضيق وغضب لم يتصوره الباز، فطرده هو وعبد الله العراقي من على ترابيزته في غضب متصاعد يرطن فيه، ويهدر بلهجته الصعيدية التي تخرج غضبًا عند الغضب:

- «اغربوا عن وجهي لا يقعد معي أحد.. قال أنا من قال.. ومن أنت لكي تستحق أن أقول لك من أنا يا بغل؟»

طردهم وجلس وحيدًا يشرب في حزن بالغ، والدموع تتساقط خِلسة على وجنتيه، دموع لم يلحظها إلا «بواب الحانة حسان» لكنه لحظها فقط من دون أن ينتبه، فأعين حسان كانت معلقة بالباب.

-١١-

زينب لم تأت سباحةً

لـم تعـد فواكـه قـادرة عـلى العنايـة بالحصـان ولا غسـله، هـو كان ميراثهـا مـن الـزوج الأول، تـرك لهـا الحصـان وولديـن، ومـات إثـر نوبـة سـعال متصاعـدة، وهـو يشـد أنفـاس الحشـيش مـن الجـوزة. تركـه الأصدقـاء المتحلقـين حولـه بعـد أن نفـدت ضحكاتهـم، مـع محاولاتهـم لجعلـه يتوقـف عـن السـعال، وحينمـا سـكت تمامًـا أدركـوا أنـه قـد مـات، وتركـوا الإسـطبل وخرجـوا تاركـين لهـا الرجـل جثـة هامـدة، وخلفـه الحصـان يتابعهـا بعينـين حزينتـين، وعربـة كارو مائلـة، وولـدان يسـألان، وجمـال في الوجـه وأنوثـة لـم ترتـوِ بعـد..

ظلـت لشـهور تقـاوم أشرس المقاومـة المتحرشـين بأرملـة العربجـي الجميلـة، وتعمـل عـلى الـكارو بمفردهـا، تنقـل أحمـالاً مـن مخـزن إلى مخـزن ومـن بيـت إلى بيـت. وأنقذهـا الله ذات عصريـة حينمـا رأت رجـلاً بلهجـة غريبـة يخـرج مـن «النيل» شـبه عـارٍ، ويحذرهـا مـن الحـرب والقنابـل السـاقطة، ففرحـت بهديـة الله وقبلتهـا، مجنـون بلهجـة غريبـة خـير مـن أراذل متحرشـين.

عرضـت عليـه الـزواج وقبـل، وقبلـت هـي حكايتـه وأنـه «عـراقي» نـزل يسـتحم في «دجلـة» وأفـاق في «مـصر القديمـة»، وصـارت زوجـة عبـد الله العـراقي، وأنجبـت لـه إلى جـوار أبنـاء

المرحوم، ولدين وبنتا، فصارت أم الخمسة. ولم يفرق عبد الله بين الخمسة، وحمل الحمل بصبر وصار هو من يغسل الحصان وينظف عجلات الكارو وخشبتها، وعلم أن قصته لا تريح زوجته ولا الجيران، فوافق الجميع على أنه قريبهم من بعيد وكان في العراق.

لكنه ظل بينه وبين زوجته من حين لآخر، يذكرها بأنه «عراقي»، وأن له هناك زوجة وأولادًا، وأنه غفا وقت الحرب واستيقظ هنا، وهي تهز رأسها موافقة، وهو يهز رأسه مصدقًا لموافقتها، وكلاهما يحتفظ في نفسه برأيه الحقيقي من دون أن يحرج الآخر. هي تنكر أنها قالت له:

- تتزوجني؟

عند خروجه من النيل، وتصر أنه أتى إليها خاطبًا بهدايا وظلت ثلاث ليالي تماطل وهو يقف على الباب ينتظر، وأنه أمهرها خمسة آلاف دينار، وهو لم يكن يملك إلا سرواله.

مرت عشر سنوات كاملة، وعبد الله العراقي من الإسطبل إلى الشوارع بالكارو إلى الحانة ليلاً، ومنها إلى الإسطبل، إلى أن استيقظت «فواكه» على طرقات متتابعة على الباب. كان اليوم هو الجمعة، وليس من عادة أحد أن يطرق بابهم، والناس عادة في الحارة لا يستيقظون قبل أذان ظهر الجمعة، فمن سيطرق بابهم في ذلك الصباح الباكر؟

تركت عبد الله يغط في نومه، وحبكت الطرحة التي اعتادت وضعها على رأسها، منذ أن امتلأ شعرها بالأبيض، فاستعيبت

أن تتركه بلا غطاء أمام الأغراب. فتحت الباب لتجد أمامها امرأة وقورة بيضاء بوجه هادئ، تحيطه تحجيبة لكنها لا تشبه تحجيبات من اعتادت أن تراهن في الحارة، من الجيل الجديد من الشابات، ولا تلك التحجيبة التي تراها على رأس الموظفات في المدرسة والمستشفى في الشارع الرئيسي.

لكنه غطاء وقور يغطي الجسد كله، ثم يحيط الوجه والرأس، ولا يظهر إلا استدارة الوجه دون الجبين. فقط العينان والأنف والشفتان. والأنف هنا محدد مميز طويل كأنف ملكة، والخدود ممتلئة وبيضاء وحزينة، والأعين كحيلة ومجهدة. والأوصاف توحي بسيدة خمسينية جميلة متحفظة، زانتها لكنتها التي تشبه لهجة عبد الله، وهي تسأل في تردد:

- هل عبد الله موجود؟ أنا زوجته زينب.

للمزيد من الحصريات إنضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

-١٢-

المحاضرة

أخذ «فريد خير الدين» يتجرع الكأس الرخيصة، ويبتسم ويشرع في إعطاء دروس للسكارى عن النفاق. محاضرة عن احترافية النفاق يفتتحها بصوت ودود لطيف:

- اعلموا أيها الإخوة والأحباب، أن النفاق في بلادنا خلق أصيل ودليل دامغ من دلائل الوطنية، والحفاظ على الهوية والتراث، وهو يحمل في طياته ذكاء حادًا وتميزًا لا يتاح للكثيرين، فالإنسان يا سادة هو الحيوان المنافق، وهو القادر دون غيره على إظهار عكس ما يبطن، وإن كانت الحرباء قادرة على التلون، فالإنسان لا يلون جلده فقط، ولكن يملك القدرة على تلوين شكله ولسانه وأفكاره وقناعاته، تلوينًا قد يدفعه إلى نسيان لون النسخة الأصلية...

أما القدرة على قوة ومتانة وعظمة التلوين، فهي موهبة تأتي مع الصغر، تأتي في البداية أيها السكارى الأعزاء في صورة قبول أنك الأضعف والأقل أهمية والصوت المهمل، فتحاول أن ترفض فكرة تجاهل العالم لك بأن تتبنى أفكارًا لا تؤمن بها، حتى تصل إلى مرحلة التابع.

والتابع هو: ذلك القابع في أمان، وحينما يتهدد هذا الأمان

تنتقل بسرعة إلى أفكار أخرى لجماعة أخرى أقوى، ويجب أن تمتلك حاسة شم قوية تتيح لك أن تشم سريعًا وقبل غيرك، رائحة تعرف بها متى تضعف قوة الجماعة التي تنتمي لها، ولا تتشبث أبدًا بجماعة تميل للانهيار، فالعواطف هي النقطة الأضعف في رحلة المنافق الأصيل، ولكن مسموح له استخدامها كأداة من دون أن تتجاوز حدود الفم وتقلص عضلات الوجه...

يقاطعه أحدهم ضاحكًا:

- يعني نستطيع أن نسمي حضرتك قوادًا؟

رد مبتسمًا:

- يربط يا أحبابي الناس عندنا النفاق بالقوادة، ويصفون المنافق بالقواد، وهو ربط رائع ومعبر، لكنه منقوص مبتور، فالقوادة هي الاستفادة المادية مقابل رعاية العلاقات الجنسية المحرمة، عبر تقديم خدمات تجعلها تتم على أكمل وجه، لكن القواد منافق محدود حصر نفاقه في مقابل...

أما المنافق بمعناه الواسع، فهو الذي ينافق ولو من دون مقابل، وذلك لعدم اقتناعه بالثوابت، فهو شخص لا يقدس الجذور وليس لديه اعتراف بالنسخة الأصلية، فالأشياء والقيم هي صور متغيرة فقدت أصلها، حتى نفسه يراها مؤقتة متغيرة باهتة لا أصل لها ولا قيمة، ويستمد احتقاره من فكرة القيمة من احتقاره لنفسه.. تهوي زجاجة

خمر فجأة على رأسه، وتسيل الدماء الحارة على وجنته، وتدور به الدنيا ويرى أحدهم ينظر له بغِلٍّ:

- فقعت مرارتنا يا قواد.

يحيط الجميع بالبرديسي الذي أوشك على قتل فريد، ويمنعونه من الوصول إليه.

-١٣-

أمر

ارتبكت فواكه وعقدت لسانها الدهشة وتلعثمت، وتعلق لسانها بسقف حلقها، وأشارت لها بالدخول والجلوس، وتحركت كالمسرنمة إلى عبد الله النائم على جانبه الأيمن في غطيط ونوم ثقيل، كأنه ملقى في بئر سحيقة. هزته فواكه هزات متتابعة من دون أن تنطق. فقط تهزه وأعين الحصان تتابعها وجلده يقشعر، والأطفال ينامون خلف ساتر خفيف، والطفلة الصغيرة إلى جوار عبد الله، ويد فواكه تواصل هز كتفه في صمت. تستيقظ الطفلة «نجلاء» على منظر أمها وهي تهز أباها، فتبتسم وتواصل فواكه الهز، ويفتح عبد الله عينيه في استياء، ليجد فواكه تنظر له بعينين شاردتين:

- استيقظ.. ضيوف يريدونك...

يفرك عينيه في دهشة من منظرها ويرد في ضيق:

- ضيوف من؟

تسحب يده في قوة وهي ترد:

- زوجتك زينب العراقية.

صمتت فواكه كثيرا كأنها تشاهد مسلسلاً في التليفزيون، يحكي قصة تحرك مشاعرها، ومر شريط العمر أمامها.. كيف وصلت تلك المرأة إلى الإسطبل في مصر القديمة؟ هل أتيتِ سباحةً مثل المحروس؟ قالت فواكه ساخرة بعد طول صمت، تحملت فيه عناق عبد الله الطويل لزينب ودموعهما وقبلاتهما، وعبد الله يحكي وزينب تمسح دموعها وفواكه تمسك جنبها الذي تتابه تقلصات القولون المؤلمة عندما تغتاظ. وقاطعتهما بسؤالها الحاد:

- هل أتيتِ سباحةً مثل المحروس؟

فقاطعتها زينب في طيبة وسألت عبد الله:

- هل تزوجتها يا عبد الله في الغربة؟

ردت فواكه نيابة عنه:

- وأولادي وبناتي منه ينظرون إليكِ.. أجيبي على سؤالي، هل أتيتِ سباحةً مثل المحروس؟

ربتت زينب على كتف فواكه، ولم تنقل عينيها عن عيني عبد الله ولو للحظة:

- انتظرت عبد الله ساعات طويلة ولم يعد، وخرج ابنه يبحث عنه، وعاد بعد أن اشتد القصف يهز كتفيه.. أدركت يومها أن عبد الله قد فُقد للأبد، وقلت للأطفال لعله أُوقف في كمين، ورأيت منامًا يتكرر يظهر لي فيه رجل يتكلم بلهجة مصرية، يبتسم في وجهي ويقول:

- زوجك لدينا في مصر يشرب في الحانة..

وأرد بلهفة:

- من أنت؟ فيخفض رأسه في خجل ويقول:

- أنا حسان بواب الحانة...

مصمصت فواكه شفتيها، وأوشكت على إصدار صوت قبيح من أنفها، لكنها اكتفت بالسؤال الساخر:

- وأعطى لكِ العنوان بالتفصيل يا حبيبتي أم اتصل بكِ بالهاتف المحمول؟

وبدأت فواكه لا إراديًا تشمر ذراعيها وزينب ما زالت على حالتها وعيناها معلقتان بعبد الله:

- لا.. كان يختفي وأصحو ولا أخبر أحدًا بما رأيت، إلى أن جاء في شارعنا منذ سنة، رجل مصري مرموق يعمل مهندسًا ومقاولًا، ذهب إليه الكثير من الشباب للعمل، لتفضيلهم العمل لدى مصري أكثر من العمل لدى أمريكي أو بريطاني، ومنهم ابني الذي جاء ذات ليلة يشكر في المهندس المصري وأخلاقه، وكيف أنه اختصه بالقرب، حتى إنه صار يعامله كأب، وباح له بسره وأخبره بأنه كان في شبابه عربيدًا سكيرًا إلى درجة أنه عاد في ليلة قرب الفجر، وهو في قمة السكر، فالتقاه أزهري وهو يهذي ويسب، فأمسكه ذلك الأزهري وضربه بقسوة ونادى على الناس ليضربوه، وذاق ليلتها ضربًا مبرحًا، إذ أوشكوا على تكسير عظامه، ومن يومها قرر

ترك الشرب ومواصلة طريق آخر حتى صار مهندسًا مرموقًا وصاحب شركات دولية. ابتسمت لابني وشجعته بكلام أمومي معتاد، لكنه قاطعني بأن المهندس قال له سرًا أغرب.. إنه مر في ليلة بتلك الحانة التي كان يشرب فيها قديمًا، ووجد فيها الأزهري الذي ضربه، صار صاحب الحانة وبوابها، فأخذه العجب وظل يسأل عن ذلك الرجل وكيف تحول هذا التحول، فعلم أنه بواب الحانة الذي لا يشرب الخمر، ويحدث الناس عن المحبة في الله، فتعجب وقال:

- لله في خلقه شئون.. لولا حسان لكنت الآن في حال أخرى.

أمسكت ذراع ابني بقوة وقلت له:

- من حسان؟

فرد في دهشة:

- اسم الرجل بواب الحانة الذي ردده المهندس المصري.

دارت بي الدنيا ولم أنم ليلتها وذهبت إلى المهندس في الصباح، وطلبت منه عنوان الحانة في مصر، وطلبت منه أن يُجيب من دون أن يسأل، وكان راقيًا جدًا، فأعطاني العنوان من دون أن يسأل عن سبب سؤالي، وتركت أولادي في رعاية الابن الأكبر، وأخبرته أني سأسافر لعدة أيام لأمر جلل، وأتيت ووصلت الحانة ووجدتها مغلقة، فسألت الحارس هناك:

- هل يأتي إلى تلك الحانة رجل عراقي اسمه عبد الله؟

قال لي نعم، فقلت له:

- هل تعرف عنوانه؟ فدلني على الإسطبل.

لم تتمالك فواكه نفسها، وأتت بزينب تحتها وصرخت في غل:

- آه يا زوج نصابين، يأتي هو أولًا ليخبرني أنه نام في العراق واستيقظ هناء ثم تأتين أنتِ بعد عشر سنوات لتقولي إنك عرفتِ العنوان في الحلم.. يا حلاوتك.

ونادت على أطفالها ليساعدوها في عجن النصابة المحتالة، وطار صوتها ليوقظ الجيران، وجاهد عبد الله في إخراج زينب من تحت فواكه وأولادها، شبه جثة. وطال لسان فواكه بكل لفظ قبيح وصرخت وبكت ولطمت وبطحت نفسها، لكنها في النهاية استسلمت لقدر الله. وشرع عبد الله في بناء حائط ليفصل في الإسطبل بين الزوجيتين، وأقسم نذرا لله على ترك الخمر للأبد، وتركهما معا ليذهب إلى الحانة ويودع حسان ويقبل يديه.

-١٤-

الراسخون في الحزن

الراسخون في الحزن لهم ابتسامة رقيقة وجميلة تسلب العقل، كذلك هي ابتسامة حسان النادرة منذ أن فارق شيخه، تأتيه على حين غرة فيبتسم كطفل. صارت الابتسامة مع الوقت تغيب أكثر، حتى صارت نادرة الحدوث، وعلى الرغم من تواضعه وبشاشته مع كل زبائن الحانة فإننا نادرًا ما نجده يبتسم تلك الابتسامة التي أقصدها. ابتسامة تلقائية لطيفة تتحول إلى ضحكة قصيرة، تجعل وجهه أكثر جمالاً وبهاء، بخلاف تلك الابتسامات المعتادة عند اللقاء والوداع.

ولكن في الليلة التي دخل فيها الحانة «الخواجاية» و«الدرويش»، ضحك حسان من قلبه. لم يكن درويشًا يرتدي خرقة وعصًا ويهدر بكلمات غير مفهومة، لكنه كان شابًا طويلاً نحيفًا يحمل حقيبته الجلد البنية القديمة الطويلة، تخرج أطراف الأوراق البيضاء منها، بينما الأقلام ذات الألوان الثلاثة تخرج من جيبه. لكن كان يتحدث كالدراويش ويصفق ويرقص ويغني، وتتداخل حروف الكلام الخارجة من فمه من دون رابط أو منطق، مع أول زجاجة خمر، وربما مع أول كأس، بينما «الخواجاية» تتابعه بابتسامة هادئة وحب كبير.

تقاطعه بألمانية تخرج من فمها الرقيق بصبر وتؤدة، وهي تداعب لحيته وشعره وتحتضنه بأمومة وتربت على كتفه، حينما تشعر بأنه يتحرك بشكل مبالغ فيه.

ثم يصرخ في صدرها باكيًا كالأطفال، ويسحب يدها للرقص، ثم يصحبها إلى حمام الحانة الضيق، حيث يخلع بنطلونه كاملاً ويناوله لها، وتظل هي تحمل البنطلون وتقف على باب الحمام حتى ينتهي من التبول. كانت تلك هي عادته، يتصرف كأنه لا يفكر، وتستوعب هي ذلك والجميع، كما استوعبت الإقامة مع ذلك الشاب غريب الأطوار، بفارق السنوات العشر وفارق الثقافة وفارق المهنة وفارق الوطن واللغة وفارق الطاقة.

فهو ذو طاقة وحيوية وأعين فتية، وهي هادئة متأملة نباتية، تحرص على ممارسة الرياضة ولا تدخن، فقط تشرب النبيذ بكميات مقننة، بينما هو يستهلك جسده وطاقته في كل لحظة. يبالغ في المطلوب منه من حركة لازمة لإدارة شئون حياته، فيصرخ ويضحك ويجري ويرقص ويتسلق ويشرب. يفعل كل شيء بمبالغة وهو يرتعد من الحياة والإثارة. لا يجيد الألمانية ولم يسافر إلى خارج «مصر» فكيف التقيا أول مرة؟

التقيا على المقهى.. اقتحمها وهو لا يعرف اسمها ولا جنسيتها، وجلس أمامها وقرأ بصوت عال:

- لولا الظلم والقتل والحروب والثورات والخيانات وكل الشرور الممكنة، لما استمعنا إلى أعذب الألحان ولا قرأنا

أجمل الأشعار والحوارات، ولما كان لأقوال الأنبياء والأولياء والصالحين هذا الوقع الشافي والساحر.. الشر أنشودة الفنان العظيمة التي يغنيها بصدق، فيعم الخير والسعادة قلوب كل من يستمع إليه أو يشاهده.

ردت عليه بعربية فصيحة:

- تقترب قليلاً من ربع شاعر..

فرد ضاحكًا:

- وتعرفين العربية يا بنت الكلب. وسحبها من يدها ولم يتركها. من يومها لم يفترقا ولو للحظة.

ولماذا هذه الليلة كان خافتًا لا يصخب ولا يرقص ولا يغني؟ ولماذا يرقص في وجهها هكذا بقسوة وكره:

- أنتِ السبب.. أنا كنت بصحتي.. لم يعرف جسدي الأمراض.. أنا لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت.

تحملته بصبر وشربت كأسها في صبر، فأمسك الكأس وحطمها على الأرض. وتحملت أن يشد شعرها بقسوة ويسحبها على أرض الحانة وحينما أمسك أحدهم به صرخت:

- اتركه.. لا شأن لك به.. دعه...

قبّلته متجاوزة آلامها، واحتضنته. ودفعها ثم بكى وخرجا معًا من الحانة. في المرة التالية عادا وقد صار الفتى أكثر ذبولاً وصمتًا وهدوءًا وامتثالاً ونحافة. خفتت ثورته. صار

صامتًا يخرج الأوراق ويكتب بهمة كأنما يعتصر حياته في تلك الأوراق. يدخن بشراهة ويكتب بحماس وصارت إترا هي من تتحدث أكثر.

صار صخبه يقل وشعره يخف وأعينه تطول نظرتها إلى حسان. أستأذنت إترا ليلتها كل السكارى أن يسمعوا ماذا كتب الشاب الأسمر في أوراقه. قالت إنه أكمل ديوانه ويريدهم أن يسمعوه.

بأعين ذابلة ونظرة محلقة في سقف الحانة وأصابع نحيلة، وصوت خافت جعل كل شيء مقدسًا في تلك اللحظة. كان مراد في منطقة بهية جليلة. منطقة يدركها من شهد تلك اللحظة.. جسد حاضر وروح.

هناك فتح فمه وهمس، فلم تخرج الجملة الأولى، فابتسم في خجل معتذرًا، فكانت ابتسامة من ضوء. بدأ بعدها صوته يعلو بصعوبة، لكنه كاف لإسماع الحانة التي صمت زبائنها جميعًا، وصمتت الحانة نفسها لالتقاط أشعار وأنفاس مراد وهو يلقي قصيدته:

- آسف على صوتي إذ ربما خرج مرة بوضوح وخانني مرات.. لكنني سأحاول.

القصيدة اسمها «سيدي الحب»

(سيدي الحب لماذا تجلس هكذا في صبر أمام بابي وأنت تعلم ما بي من أحقاد وشرور...

للكتب الحصرية ← www.sa7eralkutub.com

سيدي الحب رأيتك بالأمس قرب النهر في مطاردة شرسة مع الضجر بينما الكراهية مستلقية على سطح النهر في سمنة وتأمل

مدينة خالية من الإلهام ببيوت واطئة دخلها بالأمس رجلان متخفيان وامرأة لعوب

أحدهما كان الحب والثاني كان الكراهية

أما المرأة اللعوب فكانت السياسة

هل شهد أحدكم أطلالها بعد الخراب

ليس للحب بيت سوى القلب

أما الكراهية فتنصب خيامها حتى وسط الأحجار والأسمنت

تسابق الحب والكراهية في مضمار طويل ولم يفز أحد

تنكر الحب كثيرًا في كل الصور وفشلت الكراهية في التنكر

الحب لا يرى والكراهية لا تسمع

الحب من سماته الحيرة والأمل

والكراهية سماتها البطء والتراكم

قطة سمينة مدللة هي الكراهية وكلب طريد نحيف هو الحب)

صمت قطعته إترا بتصفيقها الحاد، وتبعها السكارى

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

وحسان وتوهجت عينا مراد بالفرحة برد فعلهم، وابتسم ابتسامة نادرة. ابتسامة لا يبتسمها بشري، وعادت إترا بعد شهر إلى الحانة بمفردها. لم يسألها أحد عن مراد، لكنها تركت نسخة من كتابه «سيدي الحب» لدى حسان.

اعتادت إترا القدوم بمفردها أسبوعيًا والشرب في صمت. أحيانًا تبتسم لجملة من البرديسي أو تعليق من الباز. صارت تعرف أسماءهم جيدًا. يتعاملون معها بود كأنها أرملة الحانة. يحترمونها ويقدرونها وأحيانا عندما يزداد حزنها ويزداد عدد الكؤوس التي شربتها، تخرج ديوان مراد وتقرأ قصيدة أو قصيدتين، ويستمعون لها في أدب، وأحيانًا يصفقون ثم تنصرف في هدوء وامتنان.

توقفت مرة لتحدث حسان بلطف عن مراد، وكيف أنه لا يتركها وأنها تراه كثيرًا وأن ذلك يوترها جدًا. وبدأت يدها ترتعش وذقنها يهتز وتبدو غير متزنة، فطلب منها حسان الراحة والجلوس قليلاً، وحينما جلست أخذت تهمس له بأنه لم يتوقف عن الظهور لها ولا ليلة واحدة، وأنها صارت تكره أن تظل بمفردها. وهناك أدرك حسان هول الأزمة التي تمر بها إترا. إنها ترى مراد في الحقيقة لا في الأحلام. تراه وتسمع صوته ولا تجد تفسيرًا.

ذهبت إلى طبيب نفسي والتزمت بجلسات العلاج المعروفة بـ«الشيرابي» من دون فائدة. هي لا تصدق ما تراه عقليتها القوية، التي قطعت الطريق على الشك والأوهام والغيبيات منذ القدم، تجعلها تتألم باستمرار وتشك في قواها العقلية،

لكنها على يقين بأن حسان يعرف الكثير، ويستطيع أن يقدم لها حلاً ما. تعجب حسان ورد في تواضع حقيقي لا يحمل ذرة زيف:

- ولماذا أنا يا سيدتي؟ أنا رجل عادي...

هزت رأسها في عناد وعصبية:

- أنت تعرف.. هو أخبرني.

ابتسم حسان في سذاجة:

- من الذي أخبرك؟

ردت باكية:

- مراد قال لي كثيرًا إنك تعرف كل شيء، أصر أن أعطيك نسخة من ديوانه الأخير، وكان يأتي قبل موته إلى هنا حتى يراك، كان ينظر إليك طويلاً ويبتسم كأنه يكلمك ويخبرني أنه يريد أن يصارحك بأشياء كثيرة. مراد كان ملحدًا وأنا أيضًا لا أصدق في فكرة وجود إله، لكنه يختلف عني.. أنا لا أشغل عقلي بالتفكير في الأمر.. حسمت الأمر من الصغر، كنت أظن وأنا طفلة أن أبي هو الإله وهو القادر على كل شيء، وحينما تخلى عني في المواقف الهامة المتتابعة، أدركت أنه ضعيف ومحدود، وأنه ليس إلهًا، ومن ثم ليس هناك إله في هذا الكون، بعد هزيمة أبي أمامي.. مراد يشبهني في أشياء كثيرة، لكنه عند السكر كانت تأتيه نوبات ارتباك وضعف، ويبدأ في ترديد أوراد أبيه وآيات قرآنية وأحاديث وأشعار..

أبوه كان صوفيًا وأخواله سلفيون، لكنه كان دائم الكلام عن أبيه.. كان يعشقه هل مللت أم أكمل؟

وجهت إترا السؤال إلى حسان في أدب وارتباك، فهز رأسه في أدب أكبر:

- أكملي وإن احتاج أحدهم إلى شيء أصنعه له ثم أعود إليكِ.

وبالفعل ظلت ليلتها تتكلم وظل حسان يسمعها ويتركها لخدمة الزبون ويعود إليها لتكمل:

- ترك مراد منزل أبيه منذ سنوات وأقام بمفرده في وسط البلد، بعد مشاجرة عقائدية كبيرة مع الأب، صرح فيها مراد بأنه لا يؤمن بشيء، وأن الإيمان وهم ومُسَكِن. هوى والده على وجهه بصفعة أدرات وجه مراد، وطرده مصحوبًا باللعنات، وظلت الأم على عتبة الباب باكية لا تجرؤ على التدخل، وظلت لعنات والد مراد تشيعه درجة درجة من درجات السلم في الدور الرابع في عمارة قديمة في حي «السيدة زينب»، وكانت آخر تلك اللعنات على باب البيت الخارجي:

- اللهم أذقه جبروتك.

أحدثت تلك الجملة وقعًا مؤثرًا داخل قلب مراد، وعلم أنها المرة الأخيرة التي سيرى فيها ذلك البيت، والمرة الأخيرة التي سيرى فيها أباه وأمه.. كان ليلتها في أواخر العشرينيات.. والمفاجأة يا حسان في تلك الليلة هي أين ذهب مراد؟ لقد

قضى الليلة بأكملها في «مسجد السيدة زينب» لم يصلِّ لكنه كان يودع المكان.. ظل يتابع المصلين وزوار المقام، وجوههم ودموعهم وأدعيتهم وخضوعهم وخشوعهم.. وغادر بعد الفجر المسجد إلى وسط البلد، حيث أقام في فندق في التوفيقية سنوات قبل أن نلتقي وينتقل للعيش معي في «الزمالك»، وكان كما تراه نشيطًا ونهمًا كأنه الحياة ذاتها، كان طفلاً ضحوكًا مدللاً بالفعل. فقد اعتاد عندما يدخل الحمام لقضاء حاجته أن يخلع سرواله كاملاً قبل الدخول كالأطفال، أيا كان المكان الذي سيدخل حمامه، ولم يكن يجيد أن يربط رباط حذائه، وأشياء أخرى كثيرة جعلتني أدرك أنه طفل مدلل، وحينما شعر بدوار بسيط ذات ليلة عند صعودنا في المصعد إلى شقتنا، ألححت عليه أن يذهب إلى الطبيب، ورغم سخريته من إلحاحي امتثل، وبعد اطلاع الطبيب على الأشعة التي طلبها، أخبره بالمرض اللعين، وظل صامتا ليلتها لا يتكلم، وحينما حاولت أن أخبره عن المناعة وكيفية تقويتها لخلق مقاومة أكبر، أوقفني عن الحديث وأخذ يتحدث عن أبيه كثيرًا، صفاته وشكله وصلواته وأوراده.. طلبت منه أن يزوره في الصباح لأن كلامه ينم عن شوق كبير، ذهبنا إلى ميدان السيدة زينب وطلب مني الدخول للمسجد أولا.. انتظرته في الخارج وأتى بعد قليل يلهث ويتصبب عرقًا وهو يخبرني أنه لم يستطع الدخول، وأن كل الأبواب موصدة.. دُهِشت ونظرت في صمت إلى أبواب المسجد المفتوحة، لكنه صرخ:

- لم أعرف الطريق إلى مكان الوضوء وحينما وجدته

وجدتـه مغلقًـا، ولـن أدخـل بغـير وضـوء.

قلت له:

- توضأ وصلِّ في بيت أبيك.

لكنـه أخـبرني أنـه لـن يذهـب إلى هنـاك، وأنـه يعلـم أن المـرة الأخـيرة مـر زمنهـا. عدنـا في صمـت وانهـارت معنوياتـه أكـثر، وصـار يغلـق عـلى نفسـه الغرفـة بالسـاعات الطويلـة، بحجـة الكتـاب. وأسـمعه آخـر الليـل يـصرخ في أبيـه غـير الموجـود مكـررًا:

- هـا هـي دعوتـك تتحقـق وهـا هـو يذيقـني جبروتـه.. هـل أنـت سـعيد الآن؟ هـا؟ وفي الليلـة الأخـيرة بعـد أن قـرأ لكـم ديوانـه هنـا كان سـعيدًا، وعـاد معـي إلى البيـت والابتسـامة لا تفـارق وجهـه.. أخـبرني في التاكسي أن أحـضر لـك نسخه هديـة مـن الديـوان، وقـال إنه يحبـك وأنـك تعـرف كل شيء.. وفي البيت طلـب مـني أن أسـاعده حـتى يتوضـأ، وأخـرج مـن حقيبتـه كتـاب الأوراد الصغـير الخـاص بأبيـه، وجلـس في الـتراس يقـرأ ببهجـة وصـوت عـال.. لـم أسـتطع أن أطلـب منـه أن يخفـض صوته من أجـل الجـيران، وتركتـه صوتـه يعلـو، وفرحـت لتحسـن حالتـه، ودخلـت لإعـداد القهـوة وصوتـه يصاحبـني.. وحينمـا سـكت الصـوت عـدت للـتراس لأجـده جثـة صامتـة، وكتـاب الأوراد في يـده.. تقبـل أبـوه خـبر موتـه مـني في صمـت وصـبر، وكذلـك الأمر، وحـضرا الجنـازة والدفـن وعـادا مـن دون أن يوجهـا إليّ أي كلمـة، وأنـا ظللـت بمفـردي بعـد ذلـك.. أراه يتحـرك في كل مـكان لا يغـادرني.. أنـا أحبـه ولا أشـكو مـن فكـرة رؤيتـه بعـد المـوت،

لكنني أعاني من فكرة ظهوره بعد الموت.. هل جننت؟

نور الفجر يتسرب عبر باب الحانة التي لم يعد بها سوى إترا وحسان الذي يودعها مطمئنًا ويعدها بالخير. تهز رأسها في شك وسكر، وتشكره وتغادر الحانة.

لكنها حينما تعود في المرة التالية ستحتضنه أمام جميع السكارى، وتسأله بامتنان رهيب:

- ماذا فعلت ليختفي؟ أجبني أرجوك.

فينظر في خجل وتواضع حقيقي:

- لم أفعل شيئًا سيدتي.

وتلح ويصمت وتبتسم مغادرة بعد فشل محاولاتها في جعله يتكلم، وتقبله عند باب الحانة بعينين لامعتين:

- ربما لا أكون مؤمنة بوجود إله لذلك الكون، لكن أنا الآن مؤمنة بوجود بشر طيبين يملكون ما لا أملك.. أشكرك.

انصرفت إترا وواصل حسان عمله في صمت ودهشة، فهو لم يكن يتوقع قط أن ما فعله سيُحدث ذلك الأثر بالفعل.

لم ينم ليلتها حسان رغم إرهاقه الشديد، وظل عاكفًا على ديوان مراد «سيدي الحب».. منذ أن أخذه هدية من إترا لم يفتحه. شعر بالندم تجاه تجاهل هذا الكتاب، فقد علمه شيخه قديمًا أن جميع الكتب مقدسة، ونهاه عن أن يبدأ كتابًا من دون أن يتمه. قرأ في فترة شبابه للكثيرين

إلى جوار كتب المتصوفة. قرأ لـ«نجيب محفوظ» و«يوسف إدريس» و«السباعي» و«إحسان عبد القدوس» و«يحيى حقي»، وقرأ لـ«ديستويفسكي» و«جوجل» و«تشيكوف» و«تولستوي» و«تشارلز ديكنز» و«هيمنجواي» و«مارك توين». يذكر أنه حينما قرأ «الأبله» لـ«ديستويفسكي» طار عقله وذهب إلى شيخه يسأل:

- كيف فتح الله على هذا الرجل الروسي وألهمه تلك المعاني وتلك الشخصيات؟ كيف يا سيدي خبر النفس البشرية بتلك الدقة؟ هل هو مفتوح عليه يا سيدي؟ أم أنه وليّ روسيا وقطبها؟

ابتسم يومها الشيخ وقال:

- فضل الله واسع يا حسان ودائم، وعلى كل الخلق، ولا يتوقف ولا يشترط، والله هو المتكلم على لسان كل متكلم، والعقل مملكة عظيمة تطوف فيها الأفكار والمعاني والشخصيات، والخيال رزق، ولو قرأت مثلاً المقامر ستجد...

واصل الشيخ ذكر شخصيات «المقامر» والفارق بينها وبين رواية «ديستويفسكي» الأخرى «ذكريات منزل الأموات»، والفارق بين «ديستويفسكي» وغيره من الكتاب الروس، وحدثه عن حالات يتوه فيها الرجل ويغرق في تفاصيل، في حالة تشبه الشرود الذهني، وكيف يتحول هذا الشرود والهذيان إلى كتابة فنية في نسيج الرواية، يوفق في ذلك أحيانا ويفشل أحيانا. وحسان في دهشة تعقد لسانه:

- هل قرأت يا سيدي «ديستويفسكي» وغيره؟

يبتسم الشيخ:

- هل قرأت اليوم «سورة الواقعة» يا حسان؟ ويشرع في قراءتها بصوتٍ عالٍ وخلفه حسان.

منذ ذلك اليوم صار لحسان مع الشيخ أحاديث شتى في الفنون بأشكالها. يتحدثان عن الشعر والرواية والموسيقى والسينما والفن التشكيلي والباليه. وطلب منه الشيخ يومًا أن يصحبه إلى الفيلم الأمريكي الجديد الذي صنع ضجة في وقتها، وطلب منه أن يقطع تذكرتين وينتظره أمام باب السينما. انتظر حسان بالتذكرتين ولم يأتِ الشيخ، ودخل حسان بمفرده، وظل الكرسي المجاور له خاليًا، وظل حسان يتابع الفيلم. وأقبلت حسناء وجلست على مسافة كرسي من حسان. كانت بمفردها وكان نور السينما يضيء وجهها، فتقع نظرة حسان الخاطفة على وجهها المخطوف بالفيلم، ثم يعود للمشاهدة. وخرج من السينما مسحورًا بما استطاع أن يتابعه وأن يراه من لمحات وجهها أمام السينما. الشارع على حالته وحسان يسير كمن فقد عزيزًا.

حينما التقى بشيخه بعدها ابتسم له واعتذر:

- شغلني شاغل يا حسان.. اجلس واحكِ لي الفيلم.

وأخذ حسان يحكي والشيخ يوقفه ويسأله فجأة. وماذا قال البطل للبطلة وهو يغرق؟ يرتبك حسان ولا يتذكر فينظر له الشيخ في عتاب لطيف:

- وماذا قالت البطلة حينما أدركت أنها فقدت حبيبها؟

لا يتذكر حسان ويزداد ارتباكه، فيضرب الشيخ على ركبته في حب:

- بينك وبينها كرسي فارغ وتنسى أهم أجزاء في الفيلم؟ ماذا لو كانت بجوارك مباشرة؟ كنت نسيت الشيخ!

ثم راح يقهقه.

وكان للشيخ وحسان أسرار فنية لم تكن بين مريد آخر والشيخ، لعله لذلك اصطفاه لمهام لا يستطيعها غيره. مهام لو طلبت من مريد آخر لخرج من الزاوية والطريق والملة. فتح حسان ديوان مراد بحذر. كان متوسط الحجم، وما أن فتحه حتى وقعت عيناه على كلمات رقيقة «منذ أن علمنا أن الجنة صنعها الله لأحبابه.. أدركنا أن كل مكان يجمع الأحباب هو الجنة.. هكذا تكلم سيدي الحب».

أخذت تلك المقدمة بحسان من صفحة إلى أخرى، وحينما وصل إلى منتصف الكتاب سقطت ورقة رقيقة جدًا ورقة من ذلك الورق «البفرة» الذي يستخدم في لف السجائر. سقطت في حجر حسان فالتقطها ليجدها مليئة بكلمات منمنمة مكتوبة بخط صغير. قربها من عينيه ليجدها خطابًا موجهًا من مراد إليه.

ارتعد جسد حسان ولم يلحظ دخول سوسن بكوب الشاي ونداءها عليه، ولم ينتبه لصوت أذان الظهر من الميكرفون الملاصق لبيته. فقط ظل يتمتم:

- «عزيزي حسان صاحب الخمارة وبوابها.. لا أعلم إن كنت تدري مدى حبي لك أم لا؟ لكنني أحبك.. أعلم أنني سأموت خلال ساعات.. ربما قبل شمس الغد.. ولكن حينما تأتي لك إترا بتلك النسخة، سأكون في قبري منذ عدة أيام.. فلتعتبره خطابًا من ميت إلى حي.. اعلم يا حسان أنني لا أومن بالله، لكنني أخاف منه.. لا تضحك هكذا واعلم أنني راقبتك كثيرًا ورأيتك كيف تعاملني وكيف تعامل الزبائن الآخرين، واكتشفت يا سيدي أنك الشخص الوحيد في عالمي هذا، الذي لم يضايقني على الإطلاق.. الشخص الوحيد الذي لم تصدر منه إليّ نظرة سيئة أو كلمة تسبب ضيقًا.. وعلى الرغم من عدم إيماني بالله فإنني مؤمن جدًا بالإنسان، وأرى أنه مبهر وعظيم. كنت وأنا صغير أسمع الوالد مع أصحابه يتحدثون عن أولئك المتحابين في الله، فهل يجوز أن أقول لك إنني أحبك في الإنسانية؟ ولأنني لا أعلم إلى أي جهة أصير، فعقلي يخبرني أنني سأصير جثة يلتهمها الدود بنهم، وأتحول إلى عظام نخرة بالية، ربما تستفيد منها الطبيعة بعد حين، لكن الملائكة الذين تحدث عنهم أبي والحياة الأخرى يظلان احتمالاً غامضًا فشلت في التخلص منه.. ولأنني آمنت بالحب وأدركت بخبرتي الإنسانية المحدودة، أنه قادر على التغيير، ويجعل إنسانًا يعيش مع إنسان آخر أو يقتل إنسانًا آخر، فأنا أطلب منك طلبًا غريبًا لو كنت تملك يقينًا حقيقيًا بأن هناك حياة أخرى وجنة ونارًا وإلهًا عادلاً رحيمًا، فلتزر قبري وتخبرني بذلك.. فإن كان ثمة ذلك فسأسمعك وأخبرهم أني أحبك، وإن كان وهمًا فلن تتكلف إلا هذا المشوار.. عنوان قبري مدون في أسفل الرسالة سيدي..

وأشكرك في كل الأحوال».

انتهت رسالة مراد وتصبب جبين حسان بالعرق في ذلك اليوم البارد. وكان طريقٌ طويلٌ وحسان المنهك يلهث، وقد أكمل ساعات طويلة بلا نوم، وهو يتحرك من موقف الميكروباص إلى طريق الرماية، ومنه إلى طريق الفيوم، وإلى مقابر شتى، وهو يلهث باحثًا عن مقبرة مراد، التي تحمل اسم عائلة أيوب، وحينما وصل كان الوقت بين العصر والمغرب، توقيت غامض والمكان خالٍ تمامًا، وليس هناك أثر حتى لتربي أو فقير يترجى من أهل الموتى المال والبرتقال والبلح والخبيز. فلا الوقت وقت عيد، ولا أثر لأي كائن حي. فقط حسان ومقبرة مراد والصمت.

وقف حسان في تردد مهيب واقشعر بدنه، ثم أخذ يطرق على الباب الحديد وهو يردد بصوت عالٍ:

- يا مراد.. يا مراد.. اعلم أني قرأت رسالتك واعلم أنني أحبك واعلم أن الله موجود واعلم أنه رحيم واعلم أنه ودود واعلم أنه لطيف واعلم أنه رحمن واعلم أنه شهيد واعلم أنه حبيب. يا مراد أحسن الظن بالله.

ظلت إترا في تراس شقتها المطلة على النيل في الزمالك، ترتشف قهوتها في هدوء وتستمع إلى موسيقاها المحببة. كل شيء هادئ تمامًا. المراكب المزدانة بالإضاءة المتعددة الرخيصة والأعلام المرفرفة لكل الدول، تمر بصخب بعيد، ويعود النيل لسكونه. أبواق السيارات تنبه من حين لآخر إلى أن هناك شارعًا في الأسفل، لكنها تقل مع دخول الليل أكثر.

الغرفة لا يتحرك فيها مراد. كانت تهرب منها إلى التراس، وتظل تتابع حركته القلقة في الغرفة. يفتح الدولاب ويغلقه، يفتح باب الحمام ويغلقه، يفتح الأدراج، يصنع صخبًا ولا يتكلم، يتحرك في غضب وتشعر بنظرته الحانقة إليها، حتى لو أغمضت عينيها.

كانت ليالٍ عصيبة فشلت معها المهدئات وجميع أنواع التدريبات والعقاقير، وحتى الحشيش الذي نصحها به بعض الأصدقاء. ظل يظهر غاضبًا ولا يفارقها إلا حينما تهرب إلى الشارع مرهقة حزينة، لكنها الآن تنعم بليلة هادئة عادية. ليلة تستطيع حتى أن تتذكر فيها مراد الحبيب. تتذكره بلا خوف ولا غضب. كان شابًا وسيمًا ومميزًا، وكانت هي تدخل الأربعين بوجل. لا تبدو جميلة، فهي طويلة كرجل، عريضة كرجل، لولا صدرها الضخم لرأيتها رجلا بصحة جيدة. حتى شعرها شديد القصر وأعينها الزرقاء محتجزة خلف زجاج نظارة ثمينة. تعمل في المركز الثقافي الألماني منذ سنوات. أتقنت فيه العربية والكثير من العامية المصرية، بما فيها الشتائم.

هكذا كان مدخل الرجال المصريين لمغازلتها:

- هل تعلمين معنى كذا؟

أدركت اللعبة بذكاء، وحرصت على عدم إقامة علاقة مع رجل من بلد تعمل به. كان قانونًا التزمت به. ظلت فترة على علاقة لم تدم بزميل ألماني سرعان ما عاد إلى بلاده، ثم اعتزلت الرجال تمامًا متفادية تحرشات يومية في الشارع

والمقهى والمصعد. تحرشات تدهشها أكثر ن أنها تشعرها بالضيق. تلاحظ نظرات أطفال في الثالثة عشرة والرابعة عشرة من أعمارهم، ينظرون بجوع إلى فتحة صدرها، أو تلمع أعينهم حينما ترفع ذراعها، ليلمحوا إبطها، أو يميلون بأعين مجنونة إلى مؤخرتها حينما تنحني لتلتقط شيئًا ما.

كانت أحيانا تضحك من ردود أفعالهم الكارتونية، وأحيانا تنظر لهم في حدة وتحذير، وصرخت مرة حينما أقبل نحوها طفل يجري بسرعة كبيرة من الرصيف إلى الرصيف. ظنت مع اقترابه أنه لص، فاحتضنت حقيبتها بقوة وفق تحذيرات سمعتها، لكنه صفعها على مؤخرتها وأكمل الجري، ولاحظت بضعة صبية على الناصية يشيرون له ويضحكون، فأدركت أنه رهان، وهو على مسافة منها يضحك بشكل هيستيري. يومها هرولت خلف الصبي بأقصى سرعتها وفوجئ الصبي بها تجري نحوه، فجرى منها في خوف وانطلق من شارع إلى شارع ومن إشارة مرور إلى أخرى، وهو لا يتوقع هذا الإصرار منها.

حتى هي كانت تجري وهي مذهولة من رد فعلها. جرت بكل طاقتها كادت تقع وتصطدم بسيارة، لكنها اعتبرتها معركة لازمة، ونجحت بالفعل في الإمساك به على آخر نفس، والتف حولهما الناس وحاول الجميع تخليص الولد من قبضتها من دون فائدة، وبكى الصبي فهزتّه في غيظ كما ترج زجاجة، وأدارته وصفعته على مؤخرته بكل قوتها، وتركته وأكملت سيرها وهي تتصبب عرقًا، وتلتقط تعليقات المشاهدين:

- يا خواجاية يا بنت الـ...

كان مـراد مختلفًـا. مـن أجلـه ألغـت قانونهـا الخـاص، ومـن أجلـه أحبـت هـذا البلـد. كان متحرشًـا منـذ اللحظـة الأولى، وسـليط اللسـان منـذ اللحظـة الأولى، لكنـه كان طفـلاً صادقًـا وفنانًـا حقيقيًـا يسـتطيع أن يغـزل اللحظـات شـعرًا، كأنـه إلـه. أحبـت فيـه الإلـه المفقـود لديهـا منـذ زمـن طويـل. فقدتـه هنـاك في شـارع مـن شـوارع «بـون».

لقـد تحـرش بقلبهـا وبروحهـا وتـرك أثـرًا لا محـو لـه. كان ينظـر لهـا بحـب، فتشـعر أنهـا جميلـة. سـحبها مـن يدهـا منـذ أول يـوم رآهـا فيـه، وذهـب بهـا إلى حانـة حسـان، وظـل طـوال الطريـق يُخيفهـا ويُضحكهـا ويحـكي لهـا أنـه سـيخطفها وسـيغتصبها، فتضحـك فيصارحهـا بأنـه سـيأخذها إلى حانـة في مـصر القديمـة، لا يذهـب إليهـا إلا الرجـال، وكيـف سيفترسـها الرجـال هنـاك، وبالتأكيـد سيفشـل في الدفـاع عنهـا لأن عددهـم كبـير. تضحـك في ثقـة واسـتمتاع بنظرتـه لهـا:

- سأدافع عن نفسي وعنك أيضًا.

وأشارت إلى رباط حذائه المفكوك، فضحك مرددًا:

- لا أجيـد ربطـه. توقفـت فوقـف وانحنـت وربطـت حـذاءه، فكانـت نظرتـه الممتنـة المدهوشـة. لـم تخـل مـن التلصـص إلى فتحـة صدرهـا، فضحكـت.

وفي الحانة صارحها مع السكر:

- اسمعي أنا أتيت بكِ إلى هنا حتى أُسكر الخواجاية وأنام معها في النهاية، لكنني أشعر أني «أحبك» فهل هذا سذاجة شرقي مدلل أمام أجنبية حمقاء؟

فأجابت في مكر:

- ومن أدراك أنك ستراني ثانية..

رد في تعالٍ:

- وهل تعتبرين نفسك جميلة؟

ابتسمت في خجل:

- سأكون جميلة يومًا ما في عين إنسان حقيقي، لا يتلصص عليّ وأنا أربط حذاءه.

وصارا حبيبين. تحسست إترا في التراس خلخالاً فضة اشتراه لها مراد من «ميدان الحسين» أو «ميدان سيدنا الحسين» كما أصر مراد يومها أن يحفظها. وتعجبت هي كثيرًا:

- لماذا «سيدنا»؟ هل أصبحت مؤمنًا فجأة يا مراد؟

هز رأسه في عناد:

- لا علاقة لهذا بإيماني، لكنهم شخصيات مقدسة، بالتأكيد لو لم ير الناس أنهم كذلك لما أطلقوا عليهم هذا اللقب.

هزت رأسها في عناد:

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

- أنت متناقض يا مراد وشكرًا على الخلخال.

سألها في عناد طفولي:

- من أين اشتريت لكِ هذا الخلخال يا إترا؟

وردت هي في حب:

- من «ميدان سيدنا الحسين» يا مراد.

لسعتها برودة خفيفة، فدخلت إلى غرفتها وأغلقت شيش التراس ونامت في هدوء، وهي تشعر بمراد يسكن روحها ويعانق خلخالها. وحينما استيقظت مبتسمة شعرت أنها لا بد من أن تمر ليلا على حانة حسان.

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

-١٥-

قتلته أم كلثوم

ما أن بدأت «أم كلثوم» تشدو في خلفية الحانة، كما اعتاد حسان أن يشغلها كل ليلة عند الساعة الثانية عشرة، لتشدو بأغان يحبها، وتساعده على العمل بهمة منتشيًا. وما أن رفعت صوتها مرددة جملة «سهران لوحدي» حتى رفع إبراهيم الباز يده وهو يلقي آخر إصبع كفته في فمه، وصرخ بصوت عال:

- هل تعرفون يا جماعة أن جدي قتلته «أم كلثوم»؟

التفت الجميع في دهشة واستمتع بفضولهم، وأدرك أنه أمسك بطرف خيط الحكي، وصمت هنيهة كنوع من شد الانتباه، وحينما اطمأن إلى تركيزهم الشديد، ارتشف رشفة من كأسه، واعتدل كحكّاء بارع ومَرّ بعينيه على أعينهم، وأخرج من بين أسنانه قطعة شبت خضراء وألقاها، وتزود بكأس أخرى وشرع في الحكي:

- كان عند كل أغنية لأم كلثوم يمسك جدي كعادته معها الراديو الضخم، ويحتضنه ويقربه بكلتا يديه من صدره، ويصرخ «ادخلي قلبي يا ست.. ادخلي قلبي» وفي تلك الليلة كانت تغني أغنية «حلم» وهو يضغط الراديو إلى قلبه، وزاده

الوجد ووقف يرقص مع اللحن بعد جملة «كلام القلب يرقصله».. ظل يدور ويدور ويصرخ مع كل كلمة «حبيب قلبي» تخرج من فم الست.. وزوجته وأولاده يتابعونه وهو ذاهل عن الوجود، يدفع الراديو لقلبه تارة ويضعه على رأسه تارة.. وصرخ صرخة رجت البيت وهي تصف «الحب» الذي هو فوق التصور، ثم صمت وترنح في صمت عندما وصلت إلى «الكلام الذي انتهى تمامًا بينها وبين حبيبها» بعدما قال ما يمكن أن يقوله عاشقان في الحب «وبقى يقول لي وأنا أقول له.. وخلصنا الكلام كله».

أغلق بعدها فمه وشخصت عيناه وذاب في المعنى راقصًا بالراديو، من دون أن يغني معها.. وصارت «أم كلثوم» هي من تحركه عبر الراديو بصوتها ومشاعرها، وهو مسلوب الإرادة تحت رحمة صوتها.. ونظرت الزوجة إلى عينيه فوجدتهما تنظران في مطلق لا تفهمه، ولم تستطع... بل لم تجرؤ على إيقافه عن الرقص، وعندما وصلت «أم كلثوم» إلى «كلام العيون التي تتكلم بلغة سر القلب وتترجم والروح التي تتجانس مع الروح» وقالت:

- «وروح مع روح تتجانس وإيد على إيد بتسلم بتسلم سلام مشتاق لمشتاق»

خر جدي ميتًا، والراديو إلى جواره محطمًا.

صمت وتأثر يسيطران على الحانة، يقطعهما الباز باحتراف منهيًا القصة:

- وصار كلما سأل أحد زوجته كيف مات الباز يا سنية؟ ترد في شرود:

- مات في «الحلم» يا كبدي.

لتنطلق ضحكات السكارى بلا توقف، وتتوالى تعليقاتهم:

- وعاشت جدتك في «الأطلال» أم أنها عاشت على «الأمل»؟

فيقطع البرديسي الضحك وهو يمسح دموعه:

- بل عاشت «سهرانة لوحدها».

ويترنح أحدهم وهو يضرب كتف حسان بخفة:

- والله لم تعد حانة حسان بل هي «حانة الأقدار»، وأعين الباز تتلقى الضحكات بفرحة كممثل مسرحي يشفى بتصفيق الجمهور.

تأخذ الحانة إجازة شهرًا كاملاً من كل عام هو «شهر رمضان» تغلق الحانات والمراقص والمسارح والملاهي، ويصبح السكارى بلا مأوى. فمنهم من يتحايل ومنهم من يقتصر على الشراب سرًا في البيوت.

يستعد حسان في الليلة الأخيرة من «شهر شعبان» ويضبط الراديو على المحطة الرسمية ويفتح الحانة على مصراعيها من بعد صلاة المغرب، ويضع كرسيًا خشبًا خارج الحانة، حتى يتاح له استقبال الزبائن من الخارج وتقبيلهم وتهنئتهم بقدوم «رمضان»، ويقدم لهم كأسًا مجانية من الكركديه،

ولو أعطاه الله العمر سيراه بعد العيد الأصغر يظل على تلك الحالة حتى قرب منتصف الليل.

ثم يعود إلى بيته حيث المرأة التي تزوجها منذ سنوات، وثلاث بنات. كانت هي الوحيدة التي قبلت به زوجًا بعد أن عرفت مهنته.. أزهري يعمل في حانة خمر. لم يكن يرغب كثيرًا في الزواج، لكنه حين التقى شيخه في مرة بعد الليلة التي رأى فيها الأولياء في ذلك الحلم الطويل، نصحه بالزواج لعله يخرج من صلبه ذاكرات وذاكرين لله.

كان أبوها «حدادًا» أكلت نار لحام الحديد إحدى عينيه، وظل مواظبًا على عمله بعين واحدة، ليصنع أبوابا وأسوارًا وأقواسًا يخرج منها سهامًا مدببة تثبت على أطراف البلكونات، حتى لا يتسلق إليها لص أو سارق. التقاه حسان بالحانة واستعاذ بالله في سره واستغفر طويلاً حينما نظر إلى وجه الحداد، إذ ذكره بـ«المسيخ الدجال». كرر الاستغفار واستاء من قبح نفسه التي قادته على الحكم على الناس بظاهر أشكالها، وقرر تكفيرًا عن ذنبه أن يخدمه في تلك الليلة خدمة تليق بملك.

ولاحظ الحداد بعينه الواحدة اهتمام صاحب الحانة به، فبادل ذلك الاهتمام بطلب المزيد من الزجاجات المتتابعة، حتى راح في دهاليز السكر وصار يبكي شبابه ثم عينه التي راحت من وهج شرارات اللحام، وكيف أنه كان وسيمًا محبوبًا من النساء. ثم تكلم عن البيوت الفخمة التي صنع لها أبوابا من حديد، وكيف صار الناس الآن بعد الثورات في

حالة خوف وذعر، وصار حتى الفقير منهم يريد بابًا حديدًا لشقته الحقيرة، وأسياخًا تحيط شباكه الصغير، وربما كانت تكلفة الحديد للباب والشباك أعلى من ثمن كل محتويات الشقة، لكنه «زمن الفقر والعنطزة وقلة الأمان».

ثم أخذه السُكر إلى العالمية، فبدأ في سب بلاد الصين وماليزيا ومعظم دول الشرق، التي اخترعت أبوابا مصفحة جعلت علية القوم يستغنون عنه، فلا يجد إلا بيوت وشقق الفقراء الذين يساومون في الأسعار، كأن الحديد شيء بلا قيمة. ثم صمت كثيرًا وواصل الشرب، ثم نادى على حسان وأشار له بالجلوس، واقترب منه هامسًا قبل الدخول في موجة بكاء رهيب كطفل فقد أبويه في السوق:

- هل تعرف أيها الرجل الطيب.. إن زوجتي منذ فقدي لعيني لا تنظر لي كثيرًا، وفي الفراش تشيح بوجهها وتعطيني ظهرها حتى لا يؤذيها منظر عيني، بعد أن أن... كانت تتغزل في نظرة عيني الساحرة التي تجعلها تغيب عن الدنيا.

يربت حسان على كتفه ويهمس بكلمات متقطعة ليواسي الحداد. وعلى باب الحانة قرب الفجر يغادر الحداد الأعور الحانة ويشيعه حسان بنظرة حب، ويخر الحداد على وجهه على عتبة الحانة، فيجري حسان ويحاول إفاقته من دون جدوى.

ساعد المارة حسان في حمل الرجل بعد أن عرفوه، وكان البيت قريبًا. حملوه وفتحت سوسن الباب وصرخت:

- أبي.

غادر الجميع وعاد حسان بالطبيب، الذي بذل الكثير من الجهد وخرج يدمدم بكلمات عن الكبد والمستشفى، وظل حسان في غرفة الأرائك إلى جوار الحداد الممدد، وهمّ بالوقوف للعودة إلى شؤونه، وإذا بالحداد يفيق ويفتح عينه السليمة ويتشبث بيد حسان مردداً:

- سأموت سأموت يا طيب اعلم ذلك يا من نظر لي بحب.. أرجوك تزوج ابنتي واستر هذا البيت.

ارتجف حسان وحاول التخلص بأدب من يد الحداد، التي صارت كماشة حديدًا أطبقت على يد حسان، قبل أن يصرخ الرجل صرخة قصيرة ويذهب إلى خالقه. صرخة أدركت معها زوجته أن أمرًا جللاً قد حدث، فدخلت تهرول وخلفها ابنتها سوسن، لتركعا باكيتين إلى جوار الحداد الميت، ويدرك لحظتها حسان أنه صار مسؤولاً عن تلك السيدتين للأبد. تزوج بعد الأربعين بسوسن، وأقامت أمها وداد معهما، ورضي بهما ورضيا هما بساقي الخمر.

-١٦-

الروائي

عرف علي يماني طريقه للحانة في الليلة التي أدرك فيها أنه كاتب فاشل بلا مستقبل. كان يتمتع بثقة اليائسين وحلم المراهقين. يحتقر العالم ويعاديه أحيانا، لأنه لم يغيره كما كان يظن بنفسه في ريعان الشباب. مكتبة متنقلة. كان موسوعيًا -بالشكل الحرفي للكلمة- لدرجة الزهد والتغافل أمام زبائن الحانة. الحانة التي قرر علي يماني في ليلة يأس شتوية، أن تكون هي مادته الخام لروايته الجديدة. كانت تحديدا هي الرواية الرابعة، ومنيت الروايات الثلاث الأولى بتجاهل نقدي وفشل تام على مستوى النشر والجمهور.

كان على يقين بأن النقاد حاقدون وكارهون ومحاربون له، وأن الجمهور بليد كسول لا يتحمس للحديث عن الأفكار. لكنه أيضًا كان يتمنى أن تزداد جماهيريته ويزداد عدد قرائه، فقرر في تلك الليلة أن يكتب عن الحانة بكل تفاصيلها. لكن عمله الروائي الرابع الذي سيبهر العالم ويجعل الإعلام والقنوات تتسابق عليه، ويعيد النقد النظر إليه بعين الاعتبار. وقرر بعد النجاح وتحويل الرواية إلى مسلسلات وأفلام، ألا يلتفت كثير إلى تغير المعالجات وابتعادها عن النص الأصلي. وأدار حوارات لا تنتهي في هذا الشأن بينه وبين نفسه وبين زجاجة

البراندي. كان يأخذ ركنًا قصيًا ويشرب ويكتب بحماس مفرط في «بلوك نوت» طويلة، كل ما يدور في الحانة من شخصيات ومواقف وأحداث.

تخطى علي يماني الخمسين عامًا. يصطحب أحيانا معه بعض النقاد والشعراء إلى الحانة، ويدعوهم إلى الشراب منفقًا بسخاءٍ لا يناسب دخله البسيط كموظف في وزارة الثقافة، لكنه كان يكتب مقالات فنية في مجلة خليجية تدر عليه مالاً يكفي لتلك الدعوات من حين لآخر.

تزوج مرتين وطلق من دون إنجاب. الأولى فنانة تشكيلية نحيفة ما زالت مولعة به، والثانية كاتبة نسوية تكبره في العمر.

ما زال يهرب منها. كلما رآها في شارع من الشوارع، دخل شارعًا جانبيًا حتى لا توقفه وتردد عليه ألفاظ التوبيخ المتتابعة، بداية من فاشل في كل مهنة، وانتهاء بقدراته الجنسية المحدودة. لم يكن يتصور في أكثر كوابيسه رعبًا أن تكون في حياته تلك السيدة.

يجلس في ركنه القاصي، ويشرع في الكتابة عن الحانة وفقا لتصوره عن الشخصيات. فهو يرى حسان صاحب الحانة رجلا عجيبا مضطربًا، ويصفه في روايته بأنه رجل يدعي الرحمة، ويخبئ قسوة تكفي لإحراق العالم. ويكتب إن البرديسي الصعيدي قاتل أجير هرب من جبال الصعيد إلى الحانة، وإنه سيقتل ذات ليلة في قلب الحانة على يد رجل أتى من آخر الدنيا لأخذ ثأره منه. ويصف عبد الله العراقي في

صفحات روايته، بأنه أفّاق من إحدى محافظات الدلتا ادعى قصة أنه عراقي نام في دجلة واستيقظ في مصر القديمة، في كذب تام ليحصل على انتباه الزبائن، وسيأتي اليوم الذي ينكشف فيه أمام الجميع. وكتب عن الباز إنه شاب مصري حقيقي، ذكي ومخلص لكنه ينتمي إلى أحد الأجهزة الأمنية التي تهتم بالحانة وروادها، لتقديم تقارير يومية عن الحانة وزبائنها الخطرين، وستأتي الليلة التي تداهم فيها القوات الأمنية الحانة وتسحب الزبائن مكبلين إلى الزنازين الضيقة.

كان خياله يلتهب بعد الكأس الثالثة، ويمتلئ حماسًا وغضبًا وينطلق في الكتابة ثم يتوقف فجأة وينظر إلى الزبائن مبتسمًا، كأنه قد عرف سرهم جميعًا وكتب حقيقتهم، والمسافة بين الحقيقة التي يكتبها والذي يراه بعينه منهم، هي الدافع القوي لتلك الابتسامة المنتشية المنتصرة.

أمينة زياد القصير، هي حب علي يماني الأخير وقارئته الوحيدة تقريبًا، وطليقة ثلاثة رجال من أصدقائه التاريخيين، ورفيقة الدرب والمقاهي في نهارات وسط البلد. تناقشه بخشونة وصدق وصوت عالٍ كأنه كاتب شاب، وتحتد عليه لبطئه وكسله، ولأن عليه أن يكتب بشكل أسرع وألا يعير الجمهور أدنى اعتبار، وإلا تحول إلى كاتب تافه لن تلتفت إليه.

يسيران لمسافة طويلة على الأقدام بإخلاص حقيقي، خلف ندوات لأجيال مختلفة مِن الكتّاب، ويتحركان معًا في ساحات الأوبرا في انتظار عروض أفلام مهرجان القاهرة السينمائي،

ويحضران الندوات الصباحية للمخرجين والصحفيين والنقاد، ويسألان أسئلة مهمة، وينصرفان إلى مسرحية أو فرقة غنائية جديدة في ساقية الصاوي، ويستريحان في مقهى صغير على أطراف ميدان التحرير لالتقاط الأنفاس والتدخين، والتعليق على اليوم بشكل فني. يعلم الجميع أنهما في حالة صداقة وحب وعلاقة واضحة، لكن أيًّا منهما لم يطلب من الآخر أكثر من تلك الصحبة الحياتية اليومية، التي صارا يهربان بها من الحياة نفسها.

-١٧-

صحبة

غاب فريد الصحفي عن الحانة عدة أسابيع متتالية، وافتقده حسان والبرديسي والباز وعبد الله العراقي. كان عبد الله العراقي منذ أن عادت زوجته زينب من العراق، وهو في حالة ذهول وصمت. لم يعد يشرب لكنه لم يستطع أيضًا الاستغناء عن صحبة أهل الحانة. أتى ليلتها وقبل يد ورأس حسان، وأخبر الجميع بعودة زوجته من العراق إليه، في كرامة واضحة من كرامات حسان. وضع حسان يده على فمه ومنعه من الإكمال، مؤكدًا أنها صدفة. وتهامس البرديسي والباز في سخرية:

- لقد وسع الموضوع مع عبد الله، وصدق أصلاً أنه أتى من العراق. سكت عبد الله ليلتها ولم يكمل ولم يشرب. فقط ظل إلى جوار حسان يشرب معه الشاي والقهوة، ويدفع نفس الثمن الذي كان يدفعه في الخمر.

ويستمع لتفسيرات البرديسي والباز عن غياب فريد الصحفي. فتح الباز الكلام بأنه رأى صورته في الجريدة، مرشحًا لتقلد وزارة الإعلام، بينما أقسم البرديسي إنه قبض عليه بعد أن بالغ في سب أحد الأكابر في برنامجه الأخير، فأخرج له ذلك الكبير أسطوانة إلكترونية تحمل له صورًا

ماجنة مع إحداهن. وهنا نظر البرديسي لحسان محذرًا:

- بالتأكيد يراقبونه ويراقبون حانتك يا حسان، وليس بمستبعد أن يكونوا قد وضعوا كاميرات داخل الحانة لتصوير ما يهذي به معنا، وبالتأكيد يملكون معلومات موثقة بالصوت والصورة عن رحلتك يا عبد الله من «نهر الفرات» إلى «نهر النيل».

سلم فريد على الجميع بابتسامته القصيرة الجاهزة، وجلس على منضدة الباز والبرديسي. سُئل عن سر الغياب، وصارحوه بما قيل من أسباب، فأنكر إشاعة ترشحه للوزارة، وأنكر أيضًا إشاعة الأسطوانة الإلكترونية، وقال:

- إن المنافق المحترم في تلك البلاد، لا يسلم نفسه لامرأة.. تعلمت في حياتي ألا تأخذ من الداعرة اللذة، ولكن خذ منها المعلومة الهامة، فإن كانت هي بلا قيمة، فبالتأكيد هي قريبة من ذوي القيمة، فأنا لا أرى في الجنس اللذة التي تجعلني أخسر مشواري.

ودارت على هامش تلك الجملة حوارات باسمة عن الجنس والنساء والفحولة والأطعمة، أنهاها فريد بسرعة بجملة حاسمة:

- كل لذة لا تدوم لا يعول عليها.

ساد بعدها صمت قصير قطعه أحد السكارى ضاحكًا مصفقًا:

- ما دايم إلا وجه الكريم يا أستاذ فريد. أين كنت إذن؟

أجاب بصدق وشرود:

- الدنيا تتغير هذه الأيام، وهناك في البلاد خطط تحاك وأماكن تتبدل ونظام يقوم على نظام، وفي تلك اللحظات من عمر البلاد يتهدد عرش المنافق التقليدي بشدة، فلكل منافق تاريخي مثلي، سند وحائط، ورجل كبير يبادلني الأمان بالمعلومة، وهنا تكمن المشكلة، فالنظام الجديد يستعين بحوائط جديدة حتى ولو كانت حوائط وهمية للنظام القديم.

زاد ذهول السامعين وأوشكت الخمر أن تطير من رؤسهم، وزعق البرديسي:

- النبي عربي يا عم الحاج، وحانة حسان ليست مجلس الشعب الموقر، ولا شاشة التليفزيون، فبسط كلامك حتى لا نمل.

اعتذر فريد واعتدل و أكمل:

- كان لا بد من الغياب والاعتزال وإعادة ترتيب الأوراق، فأنا لا يعنيني من هو القادم بقدر ما يعنيني ما هو موقعي من هذا القادم.. ومجتمعنا يا سادة يسير بين مقولتين لا ثالث لهما، فهو إما مجتمع متدين بطبعه، وإما مجتمع يعشق الحرية والفن.. ومن بنى مصر إما كان في الأصل شيخًا وقورًا وإما كان حلوانيًا.. وبناء عليه كان عليّ أن أعرف إلى أي الاتجاهين أسير، وهل أدافع عن الأخلاق أم أدافع عن

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

الحرية؟ فإن دافعت عن الأخلاق فلا بد من أن أصيغ مؤامرة على البلاد، تهدف لهدم أخلاقنا، وأهاجم تلك المؤامرة، وإن دافعت عن الحريات فلا بد من أن أصيغ مؤمراة تهدف لطمس هويتنا وأهاجم تلك المؤامرة، وهو عمل شاق في الحالتين، يتطلب مني بناء تلك المؤامرة ومعرفة خطوطها وصانعيها، والحمد لله وفقني الله في صياغة المؤامرتين، وفي انتظار السهم الذي ستسير فيه البلاد.

عاد الصمت ثانية بين السكارى، وهرش البرديسي في بطنه الكبير:

- أكاد أفهمك.. أنت معهم معهم وعليهم عليهم.. ولكن أين الحقيقة يا أستاذ فريد؟

نظر له فريد في صمت وتفكير حقيقي، ثم ملأ كأسه وشربها دفعة واحدة وأجاب:

- الحقيقة هنا في حانة حسان.

قهقه البرديسي كمن فهم، وتبعه الجميع في الضحك، ولم يجرؤ أحد أن يسأل فريد على شيء بعد ذلك في تلك الليلة، لأنهم لاحظوا أن فريد قلق ومرتبك بالفعل، ومن جميل أخلاق السكارى أنهم لا يزيدون من يشعرون بقلقه وارتباكه قلقًا وارتباكًا، بل يعاملونه بحنان ورقة.

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

-١٨-

الحانة المباركة

يقضي حسان «شهر رمضان» بالكامل في خدمة أهله، وهم سوسن ووداد والبنات الثلاث والحارة والشارع وكل إنسان. ينذر نفسه في ذلك الشهر لخدمة الخلق، لا يجهده الصيام. وإن كان في الأيام العادية يخدم زبائن الحانة، فهو في ذلك الشهر يخدم كل الناس. كل من أراد أن يحمل شيئًا يسرع إليه. كل من أراد أن يصنع شيئًا يساعده.

يقف من الصباح الباكر في طابور الخبز الطويل، ليساعد العجائز في فرد الخبز الساخن أو حمله، ويضع أمام الباب قرب المغرب، طبلية صغيرة وعليها المتاح من الطعام، ويدخل ليجلس عليها من يريد، ولا يخرج إلا بعد انصراف الناس، يتحمل سخرية الناس ويبتسم لمقولتهم المكررة:

-استشيخ بائع الخمرة.

ويختفي في الخمسة أيام الأخيرة من رمضان. يترك البيت ويذهب إلى شيخه. يستقبله الشيخ مبتسمًا فاتحًا ذراعيه بحضن باتساع العالم. يغيب فيه حسان باكيًا سعيدًا مجنونًا عاقلاً، ويمسك الشيخ بيده ويدخل به الزاوية ومنها إلى الخلوة، والمريدون يتابعون، غالبهم يعلوه الأدب

والابتسام، والقليل يهمس في نفسه:

- ما بال الخمار لا ينسانا ولا ننساه، وما بال الشيخ يستقبله برقة وحنان، ونحن هنا لم نبرح الزاوية، ولم تلوث أعيننا برؤية الخمر.

في الخلوة يبتسم الشيخ بشغف وهمة ويسأل:

- ها.. ما أخبارك وما أخبار مريديك؟

يرد حسان في خجل:

- مريديّ من يا سيدي؟

يبتسم الشيخ:

- أهل السكر الذاهلون المساكين.. كيف أحوالهم؟ قصصهم.. ماذا يقولون؟ ما درجة رضاهم؟

يبتسم حسان بوقار ويدرك أنه في مهمة جليلة، ويسرد على الشيخ ملخصًا لأهم القصص التي حدثت خلال العام، ومن أقلع ومن أوشك ومن بكى ومن سب ومن مات ومن أنشد. فينهي الشيخ كلام حسان بابتسامة شاردة كأنه غاب في خيال لا يدركه حسان:

- سبحان الله.. الكل محب.. الكل سكران.

ويربت على كتف حسان:

- انتظر معنا ليلة القدر يا حسان، فهي لأصحاب القدر

مثلك.

يقبل حسان يده ويحيط الشيخ بكتفه في أبوة ويخرجان إلى ساحة الزاوية، فيقف الجميع فيتجه الشيخ بصحبة حسان إلى ذلك المريد الذي حدث نفسه ويقترب منه:

- هل سلمت على سيدك حسان؟ سلم عليه واحتضنه فهو كله بركة؛ ينوب عنا في مكان لا يتحمل غيره أن يمر إلى جواره.

يحتضن المريد حسان بذهول، ويحتضنه حسان بحب، ويبتسم الشيخ لهما ابتسامة تتحول إلى ضحكة قصيرة كأنه يتعجب، ثم يضع ذراعيه على كتفيهما ويسير مرددًا:

- بئر المحبة لا دلو لها.. لا يشرب منها إلا الغريق.

مشى الثلاثة إلى شرفة الزاوية، وأطل الشيخ منها إلى الشارع الهادئ وابتسم:

- الحب نافذة القلب المطلة على الله.

احترقت حانة حسان وتهدمت عدة مرات، لكنها عادت وعاد نشاطها وزبائنها مرة أخرى، وكانت تعود بعد كل حريق أبهى وأجمل. فمنذ أن ظهرت المساجد الصغيرة المبنية أسفل البيوت حتى لا يدفع صاحب البيت ضرائب للدولة، ظهر معها رجال يعتلون المنابر بوجوه عابسة مكفهرة يتوعدون الخلق بالنار والعذاب في الآخرة، وبالفقر والمرض في الدنيا، ويأمرونهم بترك اللهو والابتسام والبعد عن

الآثام الحرام، ويحذرونهم من فتنة المذيعات والممثلات والراقصات والسائرات في الشوارع بملابس غير محتشمة.

وتواطأت الأحداث لتزامن المساجد أسفل العمائر، مع تنوع الملابس وألوانها ومقاساتها وفتنتها وتعدد قنوات التليفزيون، وظهور خلوات الإنترنت في كل مكان، وطالت اللحى وضاقت السراويل الحريمي، وغطيت وجوه وكشفت صدور، وصار المجتمع على مرجل يغلي، ولكن في تصاعد من دون انفجار.

وللتنفيس عن ذلك الغليان كان يخرج بعض الرجال الغاضبين، لتحطيم مقام صوفي هنا أو إحراق حانة هناك. كان حسان ليلتها يحاور أحد السكارى بلطفٍ عن لذة الخمر، وهل حدث للشارب أن سكر قبل ذلك من شيء غير الخمر، كنظرة حبيب أو بيت شعر أو صوت مغنية. وابتسم السكران وقد أعجبه السؤال، وسرح لتلتقي نظرته السارحة بنيران ولهب يضطرم في جدران الحانة، ورجال غاضبين يقتحمون المكان ويدمرون كل شيء، ويلقون النار في كل مكان.

هرب السكارى بصعوبة وامتدت النار في أرجاء المكان، واقترب الغاضبون للإمساك بحسان وضربه، لتخرج رصاصة مدوية توقف الجميع وتجمدهم في مكانهم، والبرديسي يرفع مسدسه مزمجرًا مهددًا:

- لو لم تخرجوا الآن سأفرغ باقي رصاصاته في صدوركم.. الحانة بيتي الذي فيه أستريح.

رصاصة أخرى جعلتهم يهرولون خارج الحانة. وأخذ البرديسي يساعد حسان في إخماد النار وإصلاح ما فسد، وليلتها لم يعد أحد للحانة من الغاضبين ولا السكارى، لكن البرديسي ظل يشرب حتى تباشير النهار، ثم غادر وطلب من حسان الانتظار، وعاد بعد ساعتين ومعه زمرة من الأنفار والنقاشين، أعادوا الحانة كما كانت وأجمل، وعاد السكارى ونسي الأمر. ثم تعرضت بعد ذلك بسنوات لمحاولة أشد في وجود فريد الصحفي، واستطاع بعد أن ظلت مغلقة مهدمة لأسبوعين أن يعيدها للحياة.

وفي المحاولة الأخيرة بعد أيام من «ثورة يناير» والتي كادت أن تسوى فيها بالأرض، قبع حسان في بيته، وأتاه رجل غريب لا يعرفه، بلحية قصيرة وابتسامة غير مريحة، وأخبره أن يعود لحانته وأن يقيمها، ولن يتعرض له أحد، ولكن عليه أن يتذكره مستقبلاً إن طلب منه شيئًا. وعادت الحانة لحالتها حتى إن أحد السكارى ضحك حتى سالت عيناه ليلتها بالدموع، وهو يضرب كفًا بكف:

- الحانة دي محروسة.

-١٩-

الأميرة ططر

وكان البـاز في تلـك الليلـة حزينًـا صامتًـا عـلى غـير عادتـه، فسـأله عبـد الله العـراقي عـن أخبـار «ططـر ابنـة الشـمس والقمـر»، فأشـاح صامتًـا، فألـح عليـه الجميـع رغـم أنهـم يحفظـون الحكايـة، فارتشـف بـاقي الـكأس وصـب كأسًـا جديـدة مـن الزجاجـة، وهـز رأسـه في اعتيـاد عـلى السـؤال:

- مـا زالـت عـلى غيرتهـا العميـاء.. رأتـني أبتسـم لإحداهـن في الشـارع، فهددتـني بحـرق البيـت.. ولـم أزل أستسـمحها حـتى أهلكتـني.

و«ططـر» هـي الحكايـة الأولى الـتي حكاهـا إبراهيـم البـاز منـذ دخولـه الحانـة منـذ ثـلاث سـنوات، وصـار مـن بعدهـا حـكاء الحانـة الأول، وحكايتهـا كمـا رواهـا إبراهيـم، ويضيـف إليهـا مـن الحـين إلى الآخـر تفصيلـة جديـدة، تبـدأ في الشـتاء في «شـهر كهيـك» في غرفـة البـاز القديمـة المتواضعـة داخـل جـراج في «شـارع المماليـك» في «المنيـل»، حـين كان يعمـل سايسًـا هنـاك، بعـد أن تـرك منـزل أبيـه وأمـه الموجـود في نفـس الشـارع، وقـرر الاعتمـاد عـلى نفسـه، وتـرك أوامرهـم وأموالهـم وتعليمهـم، وعمـل لـدى صاحـب الجـراج الـذي ألقـى بـه في غرفـة في بـرودة الثلاجـة، لا يوجـد بهـا إلا مرتبـة مهترئـة ومخـدة بـلا لون وسـخان

كهربي صغير لعمل الشاي، ولمبة في السقف وبطانية تمنح البرد لا الدفء، وراديو وباب موارب لزبائن لا مواعيد لهم، يطلبون سياراتهم في أي ساعة من ليل أو نهار. ثلاث ليال أولى متتابعة، كافية لإنهاك جسد وصحة إبراهيم.

وندم ليلتها وسالت الدموع من عينيه وأنفه، لا يدري من الحزن أم من البرد، حينما سمع صوت مواء وخربشة بجوار الباب الموارب، قام وهو يوشك أن يقع من الإجهاد والضعف، ليجدها قطة لا تقل بؤسًا عن بؤسه ولا ضعفًا عن ضعفه ولا جوعًا عن جوعه، فرق لها قلبه وابتسم في سخرية وهو يدخلها:

- إيه.. هل تعملين في منجم؟ ادخلي من البرد.

قرب منها طبقًا به ماء فشربت، وقرب منها طبقًا يحمل بقايا فول من الصباح، فنظرت للطبق في تعالٍ وتأفف وقفزت إلى المرتبة واندست تحت البطانية المليئة بالثقوب. تعجب الباز من تعاليها على الطعام وقفزها نحو الدفء، ومدد جسده على المرتبة وشارك القطة البطانية مستأنسا بوجود كائن آخر إلى جواره.. وبالفعل راح مع صوت أنفاسها في نوم خفيف، لم يدم حينما استشعر وهو نائم أن دفئًا أكبر يغمر الغرفة ويد بضة تتحسس وجهه، ففتح عينيه مدهوشًا ليجد سيدة جميلة تتأمل عينيه وتتحسس وجهه وتبتسم، فتبدو قمرًا منيرًا.

وقبل أن يفرح بهذا الدفء الأنثوي العارم، تملكته رعدة رهيبة بعد كسر من الثانية من التفكير. من هذه؟ ولأن

الإجابة بالتأكيد مرعبة راح في إغماءة لا يدري هل كانت حقيقية أم مصطنعة. كل ما يتذكره أنه أغمض عينيه بشدة حتى يفيق من ذلك الذي يراه.

وبعد فترة طويلة فتح عينيه ليجدها تجلس هذه المرة في ملابس شديدة الإثارة، وتبتسم بأعين يشع منها الضوء المريب. هم بالصراخ والجري، ولكنها أوقفته بصوتها الساحر:

- لا تخف يا إبراهيم يا باز فأنا الأميرة ططر ابنه الشمس والقمر.. أراقبك منذ ثلاث ليال، وأندس لك تحت السيارات التي تغسلها في صورة القطة المسكينة، حتى عشقتك واخترتك.

لم أردّ يا سادة، وانعقد اللسان، وأصدرت ططر ليلتها قانونها الصارم:

- لك مني كل ما تريد، سأكون لك كل ليلة أي امرأة تتمناها وتشتهيها، نجمة تختارها من نجمات السينما، مطربة أي امرأة وأي شكل، وستسكن في مكان أفضل، وسأعطيك إجازة مني ليلة كل أسبوع تذهب فيها إلى أصدقائك وتعود في الصباح، ولا تشغل بالك بأمور الدنيا، وليس لي عليك إلا شرط واحد لا ثاني له، ألا تنظر لامرأة غيري، ترضى بي وتستغني بي عن الإنسيات والجنيات، ولو حدث سترى مني يا إبراهيم يا باز عذابًا وعقابًا لا تتخيله.

ظلت ليلتها وجوه السكارى تتابع قصة الباز، في تصديق

وشغف ورهبة، دعمتها طريقة الباز في الحكي وتأثير الخمر وأغاني «أم كلثوم» وضيق الحانة وإضاءتها الخافتة الموحية، وظلت حكاية الباز عن ططر هي مفتاحه لقلب البرديسي وفريد الصحفي وعبد الله العراقي وحسان، وصار كل أسبوع يحذف ويضيف، وصارت ططر من الشخصيات المعروفة لدى أهل الحانة، وصار للباز أهل ينتظرونه في الحانة، بعد أن اعتاد على الحرمان من الأهل.

-٢٠-

ميخائيل صاحب الحانة

كيف تحول الأزهري إلى زبون الحانة؟ وكيف تحول الزبون إلى ساقٍ؟ وكيف تحول الساقي إلى بواب للحانة وصارت حياته داخل الحانة؟ كان صاحب الحانة يدعى «ميخائيل وهيب جرجس» وهو قبطي مصري من أسيوط. يراقب الجارسونات والزبائن وحركة الزجاجات بأعين ثعبان. كان يملك ذهنًا حاضرًا وقدرة على حساب الرشفات والنظرات والضحكات التي رنت في الحانة. يلمح البقشيش المدسوس في يد الجارسون ويستطيع التقاط وتسجيل شكل انحناءة يد الزبون وضغطتها التي تشكل انحناءة يد الجارسون السفلى، فيعرف إن كان البقشيش نقودًا ورقية أم قطعًا معدنية، ويباغت الجارسون آخر الليل وهو يربت على بطنه، فتشخلل جيوبه مرددًا الذي حصل عليه الجارسون بالقرش والمليم.

يحفظ أمزجة الزبائن وأسماءهم، ويفرق فيهم بين العابر والمقيم، وظل ذلك الأزهري الذي أتى ولم يغادر الحانة، لغزًا عصيًا على ذهن المعلم ميخائيل. شعر أن ذلك الزبون يكسر شيئًا ما داخل المبنى الذي بناه في حرفة الإدارة والتوقعات، عبر الحانة التي أسسها وهيب الأب شريك «كوستا»، وتركاها له في يوم واحد، وكان موت الشريكين في

يـوم واحـد حدثًـا لا ينسـاه أحـد.

وتـولى ميخائيـل الابـن الأكـبر الحانـة، وربى إخوتـه الثلاثـة وأدخلهـم كليـة الطـب، وأجّـل زواجـه كثيرًا مـن أجلهـم، وكانـوا يأتـون الحانـة بالبالطـو الأبيـض وبنظـارات طبيـة ونظـرات قلقة، ويفتـح لهـم الـدرج ويأخـذون النقـود وهـم يهمسـون همسًـا، وينصرفـون ويتابعهـم بأعينـه في شرود. تجـاوز عمـره الخمسـين ولـم يـتزوج، وحينمـا أراد أن يـتزوج اختـار فتـاة صغـيرة يتيمـة تصغـره بثلاثـين عامًـا، بنـاء عـلى توصيـة مـن خالـه الثمانيـني، الـذي يـزوره سـنويًا ولـم ينقطـع سـنة واحـدة عـن تلـك الزيـارة، منـذ أن وعـي ميخائيـل بالدنيـا.

يـأتي محمـلاً بأسـبتة الفايـش والبسـكويت وجـرار الجـبن القديـم والسـمن، ويقيـم لـدى ميخائيـل أسـبوعًا كامـلاً، وينتظـر العظـة الأسـبوعية للبابـا شـنودة، ويدخـل ضمـن أعـداد غفيـرة وهـو في قمـة السـعادة، بأنـه يحقـق حلمـه السـنوي، وفي ليلتـه الأخـيرة قبـل العـودة إلى أسـيوط، يسـهر في حانـة ابـن أختـه ويـشرب زجاجـة كاملـة، ويسـتدعي في ذاكرتـه كل قصـص غـدر الأهـل والأصحـاب والزمـن، وميخائيـل يسـتمع لـه مبتسـمًا.

وتـزول ابتسـامته بالتدريـج حينمـا يلمـح القصـد مـن حكايـات الخـال، وكانـت هـذه المـرة تـدور حـول محـور واحـد، وهـو غدر الأقـارب ونكـران الجميـل، والأعمـار الـتي تضيـع، وابتسـم في سـخرية فجـأة في وجـه ميخائيـل وهمـس بصـوت يفـوح بالخمـر:

- أتعتقـد يـا مغفـل أن إخوتـك الأطبـاء سـيعالجونك حـين تمـرض ثـم ضحـك وهـو يقـول: إلحـق روحـك.

للكتب الحصرية ← www.sa7eralkutub.com

في الصباح الباكر -ودائمًا ما يستيقظ الخال عريان في الصباح الباكر، حتى لو سهر في الحانة للصباح دخل وأيقظ ميخائيل غصبًا، ونظر في وجهه واقترب منه حتى كاد شاربه الكثيف الأبيض نافر الشعر، تنغرز شعراته في فم وخد ميخائيل، الذي نظر له في دهشة وامتثال كأنه يسمع أمر القدر:

- البت اسمها شمعة وصغيرة، شهر وتيجي تلاقيها جاهزة.

وتم الزواج وأتى ميخائيل بشمعة، ورحب الإخوة في البداية بالفتاة الوديعة، وزادت رغبة ميخائيل في الإنجاب، وحالت الظروف والأمراض والطاقة دون تحقيق الحلم.

وزادت كآبته وكثر شروده وقلت زيارة الأطباء الثلاثة للحانة، ومنع عنهم ما كان يعطيه لهم فقاطعوه، ولم يعد مسموحًا له أن يدخل العيادة التي اشتراها قديمًا لهم. عيادة تحمل أسماءهم الثلاثة بتخصصات ثلاثة، يمر أسفلها ويقرأها في أسى. وزادت أمراضه الجسدية والنفسية. وصار لأخوته أبناء لم يرهم، ولكن يسمع بهم، وعلم أن إخوته صاروا ينكرون معرفتهم به وبالحانة، وصار لا يغادر الحانة إلا بعد دخول شمس النهار إليها.

فيجد نفسه وقد مالت رقبته على الترابيزة وراح في نوم غير مريح، فيقف ويتأمل سريعًا الحانة الخالية، فتبدو موحشة جدًا في الصباح، وقد خلت من حياتها الليلية وضجيجها وزبائنها، فيتحرك إلى الخارج ويغلق الباب ويعود للبيت، ليجد شمعة، وقد قاربت على الخامسة والثلاثين، جميلة صبية ما زالت، وإن كان اعتراها الشحوب، بينما هو أمام

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

المرآة عجوز بشارب كثيف نافر الشعر، يشبه خاله عريان الذي مات منذ عدة سنوات.

انقطع بعد زواجه عن الزيارات السنوية، واعتزل في بيته وفقد الحركة ومات. سافر يومها للصعيد وحضر الجنازة والقداس، وشعر أنه فقد ركنًا مهمًا في حياته، وأدرك أن ذلك الأسبوع السنوي الذي كان يزوره فيه الخال عريان، هو أسبوع هام وضروري. ها هو يجد نفسه نسخة من عريان.

عريان أيضًا لم ينجب، لكنه كان بصحة أفضل وأكمل التسعين عامًا بقامة منتصبة، أما هو، فهو عريان في صورته المريضة. وجه عريان ولكن على جسد غير منتظم، بكرش ضخم وساقين نحيلتين وعينين غائرتين زادهما مرض السكري حزنًا وكحلهما الهم، وأحاطتهما قلة النوم بهالات سوداء، بينما انحنى الظهر وتهدل اللغد وانحسر الشعر، عدا القليل قرب الأذنين. عريان آخر يا ميخائيل. عريان مريض وبلا أمل. ورطه عريان الأصلي في الأمل وأدخله في تجربة فقد الأمل. ماذا لو لم يأتِ عريان تلك السنة ولم يطرح عليه تلك الفكرة الشيطانية؟ لماذا يا عريان؟ لماذا يا خال؟

لماذا كنت أنت الشيطان الذي أدخلني في التجربة، لماذا جعلتني أرفع الغطاء بيدي عن نكران الأطباء الثلاثة وعن رغبتي في الولد وخوفي من الغد؟ لماذا يا خال؟ لمَ لم تصمت أو تمت قبلها أو يغلبك النعاس؟ لماذا فتحت فمك يومها ووجدت لدي أذنا صاغية؟

أعاد النظر إلى شمعة التي دخلت الغرفة لتساعده في تغيير

ملابسه. أسلم لها يديه ورجليه وخلع ملابس الخروج، وارتدى جلبابًا خفيفًا، فصار أقرب لخاله عريان.

والتفت لشمعة في خاطر مفاجئ وقال:

- ألم تشتاقي لأسيوط يا شمعة؟

ارتبكت شمعة، وهي حينما ترتبك يختلج وجهها ويتلون في توتر، وتفرك يديها وتهتز مكانها، كأنها بالفعل شمعة هاجمتها دفعة هواء فاهتز لهبها. ظنت أنه يريد أن يعيدها بمفردها إلى بيت أبيها الخالي، فتجلس مكانها على السرير بلا رد. يكمل ميخائيل الخاطر:

- سنسافر معا وأبني بيت خالي عريان من جديد.. بيت كبير نقيم فيه في هدوء بعيدًا عن الضجيج، فأنا أنفاسي ضاقت بهذه البلاد.

تتعجب شمعة من القرار، وترد في تردد:

- لكنك لست من هناك.. أنت مولود هنا.. وأبوك أيضًا كما سمعت.. وكنت تأتي عندنا للزيارات فقط وحين موت أحد الأقارب، فلماذا تريد العودة لمكان لم يكن ماضيك فيه؟

ابتسم وغمغم في ارتباك:

- لا أعرف.. أشعر بأنني أريد أن أذهب إلى هناك.

ردت في بساطة:

- والحانة؟

أتته الفكرة كما أتت الفكرة سابقًا في رأس عريان. أراد أن يُدخل التجربة شخصًا آخر. لن يترك حياته تمر هكذا من دون أن يصنع كما صنع عريان. استمع إليه حسان طويلاً في الليلة التالية وهو يخبره بأنه سيسافر بلا رجعة إلى مسقط رأس أجداده في أسيوط، ويريد أن يسلمه الحانة.

في القطار كان يبتسم من حركة القطار وهو يتأمل شمعة النائمة، ويتذكر رد فعل حسان. كان أيضًا على عكس توقع ميخائيل، حينما نظر في عينيه مباشرة وقال:

- سأترك لك الحانة يا حسان، وأبيعها لك من دون مقابل، على أن تكتب على نفسك ورقة ضد بثمنها في صورة وصل أمانة، ويكون ريعها وملكيتها لك، وأنا لو أحببت العودة في أي وقت إلى هنا أعود.

لم تتسع عينا حسان ولم يتحمس ولم يرفض أيضًا، لكنه ظل على حالته من الصمت كأنه لم يسمع شيئًا، وسأله في براءة:

- هل أنت صاحب الحانة؟ لقد خلتك زبونًا.

اتسعت ابتسامة ميخائيل وأجاب:

- منذ أن دخلت الحانة في زي شيخ ولم تغادرها، وأنا أيضًا أظنك صاحب الحانة، وها هي تؤول إليك. وأتى ميخائيل بالمحامي وأوراق الملكية وسلم كل شيء لحسان، وها هو

يغمض عينيه مرتاحًا مع حركة القطار.

ارتدى ميخائيل جلبابًا صعيديًا واسعًا، وأقام في بيت خاله عريان بعد تجديده، وشعر بتحسن في صحته وروحه، وبدأ يستمع إلى شمعة أكثر وينظر إلى وجهها أكثر، ويقترب منها بهدوء وحب. صار يعرف النهار والصباح الباكر، ودخل رئتيه الهواء البارد النقي المحمل برائحة الحشائش والروث والطين، وابتسم على حافة الغيط الصغير. غيط عريان الذي استعاده من المستأجرين وزرعه بالطماطم. ابتسم ابتسامة رضا جميلة، وهو ينظر لهذا الغيط الأحمر ذات صباح، كأنه أدرك اكتمال اللوحة التي يحلم بها. ومات هانئًا من دون أن يعلم أن شمعة قد التقطت أحشاؤها أخيرًا بذور طفل.

كان حسان قد تضافرت كل الظروف والملل والنحل والأيام والليالي، لجعله صاحبًا لحانة دخلها يومًا ليعتذر لأحد زبائنها، ولم يخرج وظل زبونًا صامتًا، ثم تحول مع الوقت إلى ساقيًا مجانيًا للسكارى، يساعد في جلب الزجاجات ووضع المزة ومساعدة من غلبهم السكر على الوقوف إلى باب الحانة، وأحيانا إلى أقرب تاكسي، وفي مرات نادرة إلى بيوتهم، حينما يكونون في حالة سيئة، وها هو الآن صاحب الحانة وسيدها. لم يأت ميخائيل ليطالبه بالحانة، ولم يزر الأطباء الثلاثة الحانة وصارت الحانة «حانة حسان».

-٢١-

حياة

كانت هي المرة الأولى التي تضيء فيها حانة حسان بأنثى. سيدة ثلاثينية ممشوقة، دخلت الحانة في هدوء أثار عاصفة عجيبة من عواصف السُكر في رؤوس السكارى، فهي حانة للرجال تقبع في حارة ضيقة نبتت شيطانيًا في فرع من فروع الجيارة بمصر القديمة. فكيف وطأتها أقدام امرأة جميلة بشعرها الأسود المنسدل بلياقة، ولمعان محيط بوجهها المضيء الذي يشرق على جسد ممتلئ بالنعمة، وأعين يطل منها النعيم، زادها الكحل بهاءً واتساعًا، وعليها من الرموش حراس أشداء. التفت إليها بواب الحانة منجذبًا، وخطا خطوات لا يدري مقدارها، ليخبرها في أدب أن الحانة للرجال ولا تليق بسيدة جميلة، لكنه حينما صار قريبا من عطرها لم يخرج من فمه إلا:

- الحانة أنارت وقلبي صار مشكاة فيها مصباح.

رفعت إصبعها السبابة لأعلى وفهم الإشارة، ورآهما السكارى من بعيد كأنهما يتناجيان في التوحيد، لكنه فهم الإشارة وذهب ليعود بزجاجة وكأس أرجوانية نظيفة، لم يشرب فيها زبون من قبل، وطبقًا غسله مرات عدة قبل أن يملأه بالترمس والجرجير. وضع المطلوب وظل واقفًا يتابعها

وهي تشرب في أدب وصمت ورقة، ودارت نحوها الرؤوس، وحسان مشغول بمراقبة الشفاه الشهية الذائبة في كأس الخمر، فيختلط الأمر على السكران، هل تشرب هي الخمر أم أن الخمر هي التي تشرب تلك الشفاه.

تحرك نحوها فريد خير الدين في ثقة، وجلس على مائدتها مبتسمًا مرحبًا، كأنه في هول فيلاه، وفتح فمه ليقدم نفسه بتواضع المشهور، لكنها حدجته بنظرة نشفت الدم في عروقه وهي تقول ببرود:

- نعم؟

حاول أن يجمع تاريخه في تلقي الصدمات والبرود وسماكة الجلد، ويظل محتفظًا بمقعدته على الكرسي ولو لثوان وهو يرد:

- أنا... أنا...

قاطعته بحسم:

- أنت لا شيء.. عُد حيثما كنت.

شعر فريد بالفعل أنه لا شيء، وعاد حيثما كان في صمت، بينما حسان يتابعها عن قرب لا يلتفت إلى سواها، حتى وهو يخدم كل الزبائن بهمة ومن دون تأخير، لكن عينه معلقة بها هي وحدها. ودار بينه وبينها حوار طويل لم يسمعه أحد سواه، لكنها أشارت إليه أن يقترب. اقترب وابتسمت هي في ود وحنان:

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

- لمَ لا تريح أقدامك وتجلس؟

أجاب بصدق:

- مهنتي راحة سادتي الزبائن، وراحتي بعد إغلاق الحانة عندها تنتهي الخدمة.

ضحكت بخفة وطار من عينيها نور التقطه قلبه بعناية:

- ولماذا تحدثني من بعيد وفمك مغلق؟ لقد وصلني كل الكلام.. ألا تجيد الصمت؟

انهار أمامها على الكرسي المقابل، نظر إلى كأسها الممتلئة وزجاجتها التي لم يخرج منها إلا مقدار الكأس، وشفاهها التي لم تبتل، وطاش عقله. تركته يتابع خروجها الهادئ كما دخلت، حتى إنه لم ينتبه لصوت الجرسون الهامس له في حزن:

- يرضيك يا حسان ما قاله عني الباز؟

لم يلتفت وظلت عيناه معلقتين بباب الحانة.

منذ أن خرجت من الحانة وقلب حسان معلق بها لدرجة تثير السخرية والحزن. صار لا يتكلم في سره إلا معها، وعنها صارت أعينه معلقة بباب الحانة كأنه ينتظرها وكأنها قد واعدته، صار شاردًا حتى في بيته. حدث سوسن عنها في براءة:

- أتدرين أن امرأة دخلت الحانة تلك الليلة؟ امرأة جميلة ساحرة تشرب الخمر ولا تشرب، قوية تستطيع بكلمة أن تنقل

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب

facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

فريد مهرولاً لمنضدته، وأن تجعل الباز يصمت، وأن تدفع البرديسي إلى شفط كرشه زمنًا طويلاً حتى يكاد يختنق ويحمر وجهه بشدة، أما عبد الله العراقي فيظل يتابعها في صمت.

ترد سوسن:

- ومن قال إنها أول امرأة؟ ألم تخبرني من قبلها عن «إترا الخواجاية»؟

يضحك في شرود:

- إترا خواجاية وليست امرأة بالمعنى المعتاد لدينا، لكن هذه السيدة مختلفة، إنها مصرية وجميلة وصامتة.

ويلاحظ بعد فوات الأوان أن زوجته تتابعه في ضيق، فيصمت ويلاحظ أن الشاي قد أصبح باردًا، وأن موعد نومه النهاري قد راح، وأن سوسن لم تكن مرتاحة لما صرح به، خاصة وقد أدرك الباقي على وجهه من ابتسامة بلهاء عريضة، صاحبته في أثناء الحكي عن سيدة الحانة العجيبة، فيمسك بكوب الشاي البارد مدهوشًا:

- لقد برد بسرعة مذهلة.

تحمل الصينية وتخرج في صمت وتعود بعد دقائق بالشاي الساخن، ولكن حسان يكون لحظتها يسأل السيدة الغامضة عن سر تأخرها عليه، ولماذا لم تعاود زيارتها الرائعة للحانة حتى تحل البركة. كل ما لاحظته سوسن وهي تضع كوب الشاي الساخن إلى جوار حسان، أن حسان ذهب كعادته إلى النوم، وصحب معه الابتسامة التي لم ترحها في أثناء

الحكي، فترتشف هي من كوب الشاي في صمت، وتجلس مربعة تتابع غطيط حسان وابتسامته التي لم تفارقه.

وحينما دخلت في اليوم التالي إلى الحانة في نفس الموعد الذي زارت فيه الحانة من قبل، وهو تمام العاشرة، كانت بوجه زاده الهم جمالاً وأعين مسهدة ذابلة تلألأ فيها ضوء الحانة الخافت، وتبادلت مع حسان ابتسامة جعلت قلبه يثب كحية ويلدغه، فيضع يده على قلبه في ألم عذب، وتبادلا الإشاره المعتادة. رفعت إصبعها السبابة ورفع إصبعه السبابة، وعاد بزجاجة وكأس نظيفة وطبق المزة، ووضعها أمامها، فسألته:

- هل أحببت؟

تلعثم وخرجت الكلمات من فمه غامضة:

- أحببت شيخي وأحببت الناس.

فكررت السؤال في هدوء وحزن:

- هل أحببت؟

جلس حسان كمن يستريح من مشوار بعيد، وشعر أنه يلهث بالفعل:

- أحببت أطفالي وزوجتي.

أشاحت بوجهها في ضيق:

- إن لم تجب فقم واذهب لزبائنك.

وقف بالفعل في تردد وابتعد وواصل خدمة الزبائن، ثم عاد لها وجلس صامتًا في حزن، فسألت في دهشة مصطنعة:

- نعم.

فيرد والدموع تلمع في عينيه:

- أنا أعتقد أنني حاولت أن أحب وتوهمت الحب كثيرًا.. توهمت حب كل شيء.. توهمت حب شيخي وحب السكارى، وحتى حب نفسي.. لي زوجة لا أشتهيها وأولاد لا أفتقدهم وعبادة اعتدت عليها ولم تهم روحي بها، وحب سمعت عنه من الشيخ ومن كتب التصوف وحفي قلبي بحثًا عنه ولم أجده، ومر عمري وزاد حزني وكبر وهمي، وصرت لا أصدقني ولا آمن نفسي على نفسي.. مقسم بين روحي التي تسكن الزاوية ويد الشيخ، وعقلي الذي لا يتوقف عن التفكير، وقلبي الهائم مع السكارى، وجسدي الموزع بين زوجتي وأولادي وخدمة الناس.. فمتى يجمعني على نفسي جامع؟ ومتى أحب؟ لكنني أعلم أيضًا أنني أنتظرك.

ابتسمت ابتسامة حزينة خطفت قلبه خطفًا وقالت:

- أما أنا فأنا قتيلة الحب يا...

هتف:

- حسان.

فواصلت كلامها كأنها تكلم من هو غير موجود:

- لـم أعشـق في حيـاتي إلا هـو.. لـم يكـن الأجمـل ولا الأذكى ولا أي شيء، لكنـني يـا حسـان أشـعر أن الله خلقـني لـه مـن دون سـواه.. لـو رأيتـه بعـين النـاس جميعًـا سـتراه أنانيًـا قليـل الوسـامة عديـم اللياقـة سـليط اللسـان، لا يعـرف الفـرق بـين الرجـال والنسـاء في الـكلام.. يملـك كرشًـا أكـبر مـن كـرش الجالس يحملـق فيّ هنـاك (وأومـأت نحـو البرديسي) لكنـه رجـل عمـري يـا حسـان.. لا أجـدني إلا حيـة بنظرتـه متحركـة بهمتـه جميلـة بكلماتـه.

لـم يـدرك حسـان أن أعـين السـكارى معلقـة بهـا وبـه، ولـم يـدرك أيضًـا أنـه كان فاغـر الفـاه صامتًـا سـعيدًا حزينًـا موجـودًا بشـكل كامـل للمـرة الأولى في حياتـه، لا يـكاد مـن فرحتـه يـدرك لكلامهـا معـنى واضحًـا أمـام إجلالـه لجمالهـا. لكـن هذه الشـفاه لا يصـح ألا يـدرك مـا تقـول، فالكلمـات تخـرج سلسـة واضحـة بإيقـاع حزيـن يجعلهـا حيـة غـير فاتـرة. لـم ترتشـف قطـرة مـن خمـر، وصـار سـكرانًا. أسـهبت في الحديـث عـن حبيـب وأطـال هـو النظـر إليهـا كأنهـا تتغـزل فيـه. وطالـت بهمـا الليلـة بـين خدمتـه للزبائـن وسـماعه لهـا، حـتى خلـت الحانـة إلا منهـا ومنـه، فهمسـت:

- هل تصحبني يا حسان لأرى حبيبي؟

ارتبك وفتح فمه ولم يرد. فأكملت:

- لقـد هجـرني وسـافر للبحـر، ولـن أجـد سـواك يصحبـني

بمروءة ومن دون طمع إلى هناك.. سمعت بك في الشارع كثيرًا، وخاطرت وأتيت إلى حانة لا يأتي إليها إلا الرجال.. ورأيتك عن قرب وظني فيك زاد حسنًا.. سأدفع لك تكاليف الرحلة وأعوضك عن غيابك عن الحانة.. لن يستغرق الأمر إلا عدة أيام نذهب فيها إلى الإسكندرية، فإن وجدته حيث علمت واجتمع شملنا كافأتك وتركتني.. وإن لم أجده عدنا وبإذن الله سنجده.. سيارتي خارج الحانة.. سأنتظرك حتى تخبر زوجتك بأي حجة وننطلق.. أعرف العنوان وأعرف أنك لن ترفض طلبي.. وفي الطريق من هنا للبحر سأخبرك من أنا وماذا حدث لي.. والآن أسرع إلى زوجتك وفكر في حجة مقنعة.

كان عليه أن يعتذر لها بلباقة أو يطلب حتى التأجيل، لكنه وجد نفسه أمام زوجته مرتبكًا بشدة وهو يخبرها كيف مات أحد السكارى في الحانة وعليه أن يصحبه الآن إلى بلده في الصعيد كما أوصى، وأنه واجب لا يملك أن يتأخر عنه، وأن الأمر سيستغرق عدة أيام.

صرخت زوجته:

- البرديسي مات؟

لكنه تدارك الأمر حتى لا يضطره الكذب إلى النسيان وإعادة الحياة للبرديسي مرة أخرى فقال بسرعة:

- لا ليس البرديسي إنه زبون جديد من أسوان، ولا وقت لدي للرغي يا سوسن.

جهزت له حقيبة سفر صغيرة على عجل، وكان إلى جوار السيدة في سيارتها سعيدًا كطفل هرب من المدرسة للمرة الأولى، ليشاهد فيلمًا سينمائيًا حلم به كثيرًا، وكان الهواء المندفع من شباك سيارة السيدة إلى وجهه يجعله يطير مع شعرها، ويسألها للمرة الأولى:

- ما اسمك يا سيدتي؟

فتضحك:

- اسمي «حياة».

ردد الاسم في سره مرتين كأنه يحفظه:

- هل تعلمين أنني لم أغادر القاهرة في حياتي وأنني لم أر البحر منذ أن ولدت؟

ضحكت حياة ضحكة زادت الهواء حركة وحيوية وقالت:

- من لم ير البحر لم يعش يا حسان.. أنا لا أستطيع أن تمر بي سنة لا أرى فيها البحر، وإلا كانت سنة ضائعة من عمري.. كان البحر هو حبيبي قبل أن أرى بهاء.

ابتسم حسان وأسلم لها قياد روحه، واستمع استماع طفل مطيع.

-٢٢-

البحر

كانت حياة مع حسان تقود سيراتها وتحكيكأنها تتحدث بعلوم لم يكن يتخيل حسان أن تصدر إلا من شيخ أو ولي كبير. مبهورًا يستمع لها وهو يتنسم الحروف ويتنفسها، كأنها آيات تتنزل. ينظر ويسمع ويخجل أن يقاطع، وحياة تتنهد وتحدث البحر وحسان معًا:

- يبدو أن أنين البشر غير قابل للفناء، بعكس رنات الضحك التي يأكلها الهواء.. هذا الأنين الصافي، غير ذلك الصادر من ألم مرض أو من لذة لقاء أو ضربة غادرة.. لكنه أنين من نوع آخر.. أنين يبقى.. أنين يشبه ذلك الصادر من أرملة فقيرة هجرها الإخوة.. أنين لن يداويه حقًا إلا الله، فليس لبشرى القدرة على مسح ذلك الأنين أو إخفائه.. أنين يصدر بأقل درجة صوت ممكنة.. درجة صوت غير ملحوظة ولا تسمعها غالبًا آذان البشر اللاهية.. كثير هو البكاء العادي والنشيج والصرخات والنباح الآدمي لرجال ونساء منفعلين في لحظات استثنائية، وهناك نساء كثيرات يجدن البكاء والصراخ أسرع وأقرب الطرق للتعبير على الإطلاق.. أما أولئك الراسخون في الحزن لا صوت لبكائهم ولا يصرخون.. فقط ينتظرون غفلة الآخرين عنهم.. ينتظرون الصمت والظلام لينفلت منهم

الأنين انفلاتًا غير مقصود، تسمعه الملائكة وتنقله السماوات العلا ويكافأ بالخلود والأبدية.. أنين خاص ببشر ولدت قداستهم من آلام لايتحملها العاديون.. إنه أنين الأنبياء أيضًا حينما ييأسون من الناس، وهم لا يزالون على ثقتهم في الخالق، فتخرج الأنة من شفاههم مؤمنة محتارة.. أنّة إيمانية يعكر صفوها جلافة الناس وقلة إحساسهم وضعف بصيرتهم..

ربما صدرت تلك الأنة من إبليس لدى تلصصه الأول على السيد الطيني العظيم آدم.. أنة خافتة لم يسمعها حتى الملائكة المقربون، لكن سمعها «السميع العليم»، كل البيوت تنهدم وتخرب ولا تحتفظ جدرانها المهدمة بعد الخراب بالضحكات التي رنت ولا الآهات والأنات التي فلتت.. بيوت ملأت نهاراتها قديمًا الضحكات، بل القهقهات التي بغير حساب، كانت ترن من أفواه الرجال في لحظات متقاربة متداخلة، تصنع موجة ضحك في فراغ الغرفة فوق الضاحكين.. موجة يهتز لها البيت بالرجولة ويمرح على إيقاعها الأطفال اللاهون في الخارج، وتطمئن النساء فيضحكن ضحكهن الصادح المائع المتهتك الممطوط، فتنثني المراتب والوسائد تحتهن.

صمتت وسك حسان عينيه وهتف:

- والله إن من فمك العذب لتخرج علوم لم يلفظ بها لسان.

وفي غرفته كان يفتح الشرفة ويستحضر صورتها وصوتها

مع البحر، ويفكر بتبجيل وقداسة فيها وفي قصتها وقلبها الرحيم العاقل، الذي جعلها تتبع أحوال المرضى وتحفظ كلماتهم الخارجة قبل الإفاقة وقبل الموت أو قبل النجاة، في اللحظة السحرية تلك بين عالمين. وأخبرته بأنه الشغف أو ربما التتبع المرضي العجيب فجأة من كثرة عشرة المرضى في المستشفيات، وماذا قالوا في آخر لحظة، ما هو نطق اللسان عند خروج السر الإلهي وتسليم الأمانة إلى بارئها؟ كلّفه ذلك الكثير لكنه كان مختلفًا يا حسان. وانتبه حسان بلا غيرة وأكملت:

- منذ أن دخل المستشفى في حادثة كسرت فيها ساقه وأجرى عملية دقيقة استغرقت ساعات، ووضع عدة مسامير بلاتين وشرائح، وأنا الممرضة المسؤولة عنه.. ألاحظ ألمه وأتابع كلامه وهو غائب خلف ستار البنج.. استرقت السمع إليه باهتمام.. ساعدته على تغيير ملابسه وإدخاله الحمام وتركت له يدي حينما استرد عافيته عن عمد، وتشبث بها بخشونة عن عمد، فالتقت أعيننا وشباك الغرفة يطل على غروب ساحر.. لم يزره أحد في المستشفى خلال أسبوعين كاملين، وتندرت زميلاتي الممرضات على ذلك المقطوع من شجرة.. حكين لي كيف كان يتحرش بهن.. لم يزدني ذلك فيه إلا حبًا، واستطعت أن أبعد كل الممرضات عنه، وصرت أقضي كل الوقت إلى جواره.. لم يكن لطيفًا ولا رقيقًا، بل خشنًا صادمًا لا يجمل الكلام، يلقي به كما هو..

يملك محلاً للإضاءة وبيع المستلزمات الكهربية في مكان حيوي في وسط البلد.. قال لي فجأة على غير عادته الخشنة

قرب الشباك المطل على صباح منعش:

- «أنتِ تضيئين في وجهي أكثر من كل اللمبات التي أملكها في محلي»..

واقترب ليقبلني، وأنا لم أبتعد.. كانت عيني على باب الغرفة حتى أتدارك قبل أن تدخل ممرضة أو يمر الطبيب النوبتجي.. ودخلت بالفعل امرأة جعلتني أتراجع وجعله صوتها يستدير لها في ذهول.. كانت سيدة أربعينية ممتلئة جميلة يتبعها صبيان في سن البلوغ قريبي السن، الفارق يكاد يكون سنة، وطفلة صغيرة آية من آيات الجمال، تجمع بين جمال أمها وجرأة أبيها.. إنها أسرته بالفعل.. كان لقاء عاطفيًا جدًا من قبل زوجة تلوم زوجها وهي تحتضنه على عادته في الكذب عليهم حينما يمر بمصيبة، لأنه أخفى عنهم تلك الحادثة وقال إنه مسافر، بينما قلبها لم يسكن وظلت تسأل حتى عرفت أنه هنا.. ورد في هدوء بأنه لا يحب أن يشغل بالهم ولا يحب أن يروه إلا سليمًا معافى..

وظل يشكرني أمام زوجته التي احتضنتني وأخذت تدعو لي دعاءً جميلاً متتابعًا، حتى انهرت في حضنها باكية، كان بكاء حارًا مني وطويلاً، وبحرقة ونهنهة جعلت الزوجة تزيد من الطبطبة عليّ في تعاطف زاد من بكائي وتعلقي بحضنها.. شعرت بحرمان شديد وغيرة شديدة وتمنيت أن أكون جزءًا من تلك الأسرة ولو لعدة دقائق.. خرج من المستشفى بصحبتهم بعد عدة أيام، ولم أتركهم إلا على باب المستشفى الخارجي، وأنا أنظر لهم جميعًا بحب.. نعم

جميعًا يا حسان.. أحببته وأحببت كل من ينتمون إليه، صار المستشفى من بعد خروجه مرضًا بلا شفاء، واستجبت لأول مكالمة منه وطرت إليه بلا جناح.. كان يرتدي سترة كاملة كأنه عريس، وطلب مني أن يتزوجني فرفضت.. قلت لا أريد منك إلا أن تحبني، نظر لي بشك وقلة احترام وحاول أن يحور الكلام ليجرني إلى اختبار استكبرت أنوثتي أن تقبله، وقلت له: لا تكن غشيما أنا فقط أريد أن تحبني تشتاق وتسأل وتبحث وتتعب وتسهر وتحلم وتهتم أريد قلبك. لم يفهم ولم أغضب.

راضيًا بالسماع، كانت تقود السيارة بسرعة كبيرة، لكن حسان كان هادئًا مستقرًا كأن السيارة ساكنة لا تتحرك، حتى عندما توقفت بهما بجوار شاطئ البحر، وأشارت له أن ينظر أمامه. ذهل حسان وهتف بأعلى صوته:

- يا الله البحر.

وهبط من السيارة منجذبًا ومشى إلى سور الشاطئ وصعد فوق السور، وصرخ بأعلى صوته وهو يرفع يديه كأنه يكبر:

- يا مرحب يا بحر يا حبيبي يا بحر ما أجملك ما أوسعك ما أقواك ما أجمل أمواجك ما أذكى رائحتك.

وحياة تضحك من طريقته وتهبط من سيارتها وتتجه إلى السور وتجلس تتأمل حسان وانبهاره وجنونه بالبحر. وسألت:

- ماذا تريد الآن من البحر يا حسان؟

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

هتف بتلقائية:

- الغرق يا حياة.. الغرق.

أمسكت يده لتجلسه، فارتعش جسد حسان بأكمله، وجلس ينقل نظره بين وجهها والبحر وهو يضحك ويضرب كفًا بكف:

- كأني أنظر إلى وجهك ثم أنظر إليه مرة أخرى، فإذا البحر هو وجهك الآخر، أو مرآة وجهك.

بتسمت مداعبة:

- أنا البحر يا حسان.

نظر لها بتصديق كامل فهزت رأسها في حزن وكررت:

- أنا البحر الذي جف.

ولمعت في عينيه قطرة مالحة من البحر، وقال حسان كأنه يصدر قانونًا:

- لا حزن مع البحر.. هل تريدين أن أغطس لك الآن في البحر وأحضر لكِ أجمل سمكة، وأجعلها تكلمك وتخبرك أنه لا يليق الحزن مع الجمال؟ اسمعي.. لقد كنتِ سببًا في أن أرى البحر وهو فضل عظيم منكِ، فأمريني يا حياة ماذا أفعل لكِ حتى تبتهجي؟

ترد في جدية شديدة:

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

- أريد أن أرى حبيبي يا حسان.. فرحتي لحظتها ستكون أكبر من فرحتك برؤية البحر.

ابتسم حسان:

- وأنا رهن إشارتك..

يا بحر أنا «حسان بن عميرة الفوال» بياع الفول في مصر القديمة.. الأزهري النابغة يا بحر.. أنا ناهزت السابعة والأربعين عامًا من عمري، وها أنا ذا أتعرف عليك وأعرف نفسي لك، ولن تعرفني إلا غريقًا يا بحر.. كنت أصحو مع قدرة الفول وأنام إلى جوارها وحيد أبي عميرة وأمي فردوس.. لم ينجبا غيري يا بحر.. حفظت القرآن فاحفظني فأنا لم أتكلم إلا أمامك يا بحر. ليلقي نفسه بعدها في سذاجة كبيرة إلى البحر مبتسمًا كأنه يحتضنه، وتصرخ حياة على الرجل الذي قفز ولم يقب، وحينما كان على الشاطئ ملقى بين رجال أنقذوه ويحيطونه بالأسئلة المعتادة، وهو مبتسم مبلول، لا يرد. وحياة تدثره وتسعفه وتصحبه إلى شمسية وكرسيين إلى جوار البحر، وتتركه يتأمل البحر والشمس تغمره، وعيناه محمرتان من ملح البحر ووجهه باسم مشرق سعيد، يتابع الموج ويحكي:

- كنت طفلاً لاهيًا يا بحر أقف بجوار القدرة الساخنة في الشتاء، أدفئ يديّ ببطنها المنفوخ، وعميرة يغرف.. يغني وبخار لطيف يخرج من فمها، وأيادٍ تمتد بأطباق بلاستيك ذات ألوان شتى، ونساء وبنات وعجائز، وأنا أتابعهم بأعين نصف مستيقظة، وأفكر ماذا كان سيفعل هؤلاء الناس لو لم

يقف عميرة بعربته الخشب والقدرة كل صباح؟ وأسال نفسي أسئلة عدة لا معنى لها، تليق بصبي في عمري بجوار قدرة الفول، وأنا أراقب وجوه الناس وأيديهم.. من يخرج النقود بسرعة ويمد الطبق الفارغ ولا يكاد ينتظر حتى يمتلئ، ومن تمد الطبق وتراقبه بدقة ثم تهزه لعميرة وتهمس «اتوصى» وتتكاسل في إخراج النقود، ومن ثم تمصمص شفتيها بعدم رضا وهي تسحب الطبق الممتلئ من تحت المغرفة، ويد الصبي اللحوح وصوته العبثي المكرر بلا معنى:

- عم عميرة عم عميرة عم عميرة..

أتوه مع الناس وتفرغ القدرة على العاشرة صباحًا، وأبدأ أنا وعميرة في تجهيز القدرة، وأنا دائمًا أنتظر ذلك الشاب المتأخر الذي يأتي دائمًا بعد أن تفرغ القدرة من الفول، بأعين نائمة وترتنج سوت «النادي الأهلي» وفي يده حلة صغيرة، يمدها من دون أن ينظر، ويضحك عميرة ضحكته الرائقة:

- الحمد لله جبرنا يا أيمن، حاول أن تصحو غدًا قبل أن تنام القدرة.

يفتح أيمن عينيه في ضيق ويهز الحلة ويواصل المشي متذمرًا، فينظر لي عميرة وأضحك معه للمرة الألف على الذي لن يصحو أبدًا قبل نوم القدرة.

كان غسل القدرة بالخرطوم هو متعتي اليومية، وهي مسؤولية كبرى لم يسمح لي والدي بالاضطلاع بها، إلا في سن

العاشرة.. يخترق الماء المندفع من الخرطوم فوهة القدرة، ويساعدني عميرة في رج القدرة حتى لا يبقى فيها شيء من بقايا الفول، ويتأكد من نظافتها الكاملة بعد كثير من الماء والرج لنعود إلى فردوس.

فردوس لم تنجب غيري، حاولت هي وعميرة أن يعرفا الأسباب، ولكن كان السبب الوحيد المقنع في النهاية أنه أمر الله. وأدبني عميرة وأحسن تأديبي يا بحر.. لم يضربني قط إلا مرة واحدة، حينما أتت جميلة باكية صباحًا تشكو لي وقوع نقودها، فأعطيتها من وراء ظهره الفول مجانًا لمدة أسبوعين، وحينما اكتشفت وأنا أغسل القدرة من ابن البقال إن جميلة تبكي أيضًا له ولابن الفكهاني وأنهما يعطيانها أيضًا مجانًا مثلي، ولكن في مقابل قبلة ورؤية نهديها، حاولت تقليدهما، وقلت لها لن أملأ طبق الفول حتى أرى نهديك، وأشرت لها أن تتبعني، وحينما لمحني عميرة أبتعد أشرت له أني في طريقي إلى حمام الجامع، وفي مدخل بيت أيمن الذي لا يصحو قبل نوم القدرة، فتحت الجميلة طوق جلبابها، وقبل أن أمد يدي قدر الله أن يصحو أيمن مبكرًا ويمسكني ويمسكها ويجرسنا في قلب الشارع، ولم أكن أعلم أن الخرطوم الطيب الذي أغسل به القدرة، قادر على خلق هذا الألم على ظهري، ويد عميرة تنهال به عليّ.. أسبوع كامل يا بحر في البيت يتركني عميرة ويخرج وحده بالعربة والقدرة، وأنا وفردوس بمفردنا ننتظر.. لم يحكِ لها عميرة شيئًا، فقط اكتفى بأنه لا يريدني معه...

لكن طوق جلباب «كرم» كما عرفت اسمها فيما بعد، كان

يؤلمني في أحلامي أكثر من الخرطوم، وظل وقعه في نفسي أشد إدهاشا من دهشة أمي، حينما رأت -وأنا أخلع فانلتي- آثار الخرطوم.. صرخت وظلت أسبوعًا لا تكلم عميرة، وظل هو لا يريد أن يذكر لها السبب، وظللت أنا في حال عجيبة بين خصام عميرة لي وخصام فردوس لعميرة، ورفضي ورفض عميرة أن نذكر ما حدث لفردوس...

وحينما أصر عميرة أن أكمل تعليمي بالأزهر، وواصل بمفرده دفع العربة والقدرة، كنت أساعده في الإجازات، ولمحت في طرف الشارع سورًا يقام يتحول من إجازة إلى إجازة إلى جامع صغير شديد الجمال في البناء، ذي قبة خضراء وتحيط به مع الوقت حديقة صغيرة.. كان هذا الجامع كأنه غير شكل الشارع وأضاف إليه روحًا جديدة.. لم أكن أنا وعميرة نصلي فيه، وكنا لم نزل نصلي في الجامع القديم القريب، لكن أعيننا معلقة بذلك الجامع البهي.. أرقبه بشغف وشوق وألحظ أنه كل فترة يضاف إلى جماله جمال تفصيلة جديدة أو لمسة فنية.. أشجاره مهذبة، بابه أنيق موارب على الدوام، لا مفتوح ولا مغلق، ويصعد منه الأذان بصوت رقيق عذب...

ثم بدأت تخرج منه بعد العصر أصوات الذاكرين العذبة، بصلوات مرنمة منغمة عن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وصار الناس يتحدثون عن ذلك الشاب الأنيق الذي بنى الجامع.. ذلك الشاب منير الوجه الذي يلتقط الصبية من الشارع وهم يلعبون الكرة أو يضحكون بصوت عالٍ، ويطلب منهم الدخول للصلاة، وفي الداخل

يمنحهم الحلوى وربما النقود أو مسبحة أنيقة ثمينة، كتلك التي رأيتها في يد صبي يحكي، في نظير أن يراهم ثانية في صلاة الجماعة، كان يعلمهم كيف يصلون على سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وكان يجلس بالساعات الطويلة يحكي لهم عن أخلاق الرسول ويصف لهم وجهه وأعينه وهيئته، ويضع مكافآت لمن يحضر منهم صلاة الفجر.. ظلت الأقاويل تصل إليّ وإلى عميرة، وشغفي يزيد وترددي أيضًا، ففي الأزهر التقيت بشباب كثر يحذرونني من الدراويش والصوفية، وأولئك الذين شطحوا ووضعوا في الدين ما ليس فيه، ورأيتهم يدفعونني دفعًا لقراءة كتب ليست في المنهج عن العقيدة، لـ«ابن تيمية» و«ابن عثيمين» و«محمد بن عبد الوهاب».. كتب ترمي أولئك المتصوفة بالكفر وتلعنهم وتقول إنهم أشد خطرًا على الإسلام من المجوس.. زاد شوقي وزاد توجسي، إلى أن جاء صبي ذات صباح وقال لي الشيخ يريد أن تملأ له هذا الطبق من الفول...

قبل أن أرد، كان الصبي قد جري واختفى وترك الطبق في يدي وتركني في تردد.. كان الطبق في يدي ممتلئًا وكنت على باب المسجد في تردد رهيب، فسمعت صوتًا رقيقًا يوجهني:

- أنا في الحديقة هنا ولست في المسجد..

تحركت إلى باب الحديقة الصغيرة المحيطة بالمسجد وكان بابها مواربًا، ودخلت لأجده يفترش النجيلة ويجلس وسط الشجر تحت شمس الثامنة صباحًا، وكأنه اقتطع من الجنة مكانًا وجلس فيه بعباءة بنية رقيقة، على جلباب أبيض

وطاقيـة بيضـاء، ونظـرة باسـمة ووجـه طفـولي حنـون، تشـعر معـه بالراحـة والامتنـان والرغبـة في البـكاء.. أشـار لي بالجلـوس وسـأل:

- هل الفول محوج وجاهز للأكل؟

هـززت رأسي في صمـت، فمـد يـده إلى لفـة قمـاش إلى جـواره وأخـرج منهـا رغيفًـا واقتسـمه وناولـني نصفـه:

- ليس في الدنيا أجمل من مشاركة الطعام مع الأحباب.

ابتسمت حياة وقالت:

- أجمل من طوق جلباب كرم.

ارتعـد حسـان وأفـاق مـن النظـر إلى البحـر والتفـت إليهـا في ذهـول:

- من أنتِ وكيف سمعتِ ما قاله لي؟

ردت:

- وهل هناك أجمل من طوق جلباب كرم؟

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

-٢٣-

إدارة جديدة

غاب حسان ثلاث ليالٍ عن الحانة، وسأل الجميع عنه. البرديسي الذي وجد في إدارة الحانة ضالته، وصار يجلس على مائدة في صدارة الحانة، وأحضر صبيًا من صبيان القصعة ليمر على الزبائن بالزجاجات والكؤوس والتسالي. يتكئ كأنه يجلس في مندرتهم بالصعيد، ويصفق على الصبي بغضب إذا تأخر، ويشير لعبد الله العراقي فيشرع في العزف الحزين.

وفي الليلة الثالثة نهره بصوت عالٍ أمام الجميع وزمجر مهددًا:

- لماذا العزف كل ليلة حزين؟ هؤلاء السكارى لديهم من الحزن ما يملأ كل زجاجات الحانة.. صفر في نايك هذا شيئًا يدخل السرور على القلب الحزين.

وبدأ عبد الله يفكر في لحن راقص، وحينما توصل له كان ينقصه الإيقاع، فشرع إبراهيم الباز في التطبيل على مائدته، وصفق السكارى وابتسم الأستاذ فريد وقال مداعبًا البرديسي:

- لا ينقص الآن حانة حسان إلا راقصة يا برديسي ليكتمل

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

الإنسان.

ورفع البرديسي يده وملس على كرشه وفتح فمه في تحدٍ:

- عليّ الطلاق لأحضرن من الغد راقصة تهز الحانة هزًا يا أستاذ فريد.

اعتبرها الجميع مبالغة من البرديسي، ونشوة زائدة من نشوات الخمر والإدارة لهذا الجنوبي، الذي صار على حين غرة عمدة حانة حسان، لكن الليلة التالية حملت للجميع مفاجأة لم يتوقعها أحد. دخل صبي البرديسي الذي تأخر ساعتين كاملتين اضطر خلالها البرديسي وبصعوبة شديدة أن يخدم الزبائن بنفسه، وكاد يتشاجر مع الباز ويصفع عبد الله ويحطم الكرسي فوق رأس الأستاذ فريد، حينما تعمدوا واحدًا تلو الآخر وبقصد، أن يستفزوه ويستعجلوه وينادوه بتعالٍ، لكنه كظم غيظه وتحمل إلى أن دخل الصبي يحمل حقيبة صغيرة، لا يعلم أحد ماذا تحوي. الجميع يتطلع إليها ويخمن، ثم دخل رجل نحيف مهذب يرتدي بذلة كاملة سوداء، وقميصًا أبيض وربطة عنق حمراء وحذاء لامعًا، وجلس على مائدة جانبية فارغة تواجه السكارى.

واقترب منه الصبي فناوله الحقيبة السوداء، ليخرج منها طبلة ويشرع في مسحها بعناية، في لحظة دخول رجل ثانٍ سمين بقميص مفتوح وشعر صدر أشيب مليء بحبات العرق، ووجه أبيض يتصبب عرقًا، يحمل حقيبة أخرى عريضة، يجلس وهو يلهث، ويفتح الحقيبة العريضة ويخرج منها الأورج، ويصافح صاحب الطبلة، والسكارى

تتسع ابتسامتهم، والبرديسي يشير لهم بالصبر، ويصفق ليدخل رجل أشيب عجوز قصير بشوش مبتسم، بفم قليل الأسنان وسيجارة في اليد. وجلس ثالثًا إلى جوار الطبال وصاحب الأورج، وهو يحتضن العود ويخرج الريشة من رقبة العود ويضبط الأوتار والسيجارة لا تفارق يده. ينضم إليهم عبد الله العراقي وفق إشارة من يد البرديسي، الذي يقف في منتصف الحانة:

- البرديسي لا يحلف بالطلاق كذبًا ولا تحت تأثير الخمر.. البرديسي إذا حلف أوفى.

يتحرك بحركة مسرحية إلى باب الحانة ويمد يده في الهواء، ليمسك بيد بضة تتحول بالتدريج إلى امرأة كاملة. امرأة ضخمة عريضة ببنطلون جينز ضيق وتي شيرت قصير يكشف صرتها، ويصحبها البرديسي إلى منتصف الحانة، ويرفع يده كمايسترو إلى الفرقة التي تشرع في العزف، ويترك يد الراقصة لتبدأ في الرقص والسكارى في سعادة وذهول. البرديسي اتكأ على مقعده في رضا، وهو يملس على كرشه كأنه قد أخذ بثأره من القاهرة وصار ملكًا للحانة، حتى إنه نسي منال.

ومنال هي زوجة البرديسي وقريبته الصعيدية وأم أولاده الطيبة، التي ارتدت النقاب بناء على رغبتها منذ عدة سنوات. لاحظت تحسن حالة البرديسي النفسية منذ أن صار مسؤولا عن حانة حسان. كانت لا تستريح لمعاقرته الخمر، ولكنها أيضًا لم تعاتبه معاتبة صريحة ولو لمرة واحدة. حريصة على القيام بصلواتها الخمس في كل يوم، والصوم يومي

الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهو أمام صمتها وعدم رضاها وحفاظها على عدم عتابه في ذلك. ظل حريصًا على عدم شرب الخمر في البيت، وظل تردده على الحانة هو السر الذي لم تفشه منال لأولادها الثلاثة ولا لجيرانها ولا مرة.

تزوجها وأتى بها إلى القاهرة، وصبرت على ضياع الأحلام عامًا بعد عام، وعلى تحول زوجها خريج الجامعة اللامع، الذي كان يومًا من الأيام يقرأ لها شعرًا كتبه لها خصيصًا، ويعدها بأنه سيصير يومًا ما في تلك العاصمة «أبنوديًا» جديدًا أو «أمل دنقل» آخر، حتى صار مقاولاً يتزعم مجموعة من الأنفار من بلدياته، ويقودهم من الصباح للمساء في تشييد عمارات يصنعها الجنوبيون بالمشاركة، حتى يصير الشارع الجديد كله عمارات يمتلكها أهل الجنوب بالشراكة، ويبيعونها ويشيدون غيرها، وهكذا. ويظل البرديسي على حالته مجرد رئيس للأنفار، وتظل الليالي تأكل الوعود، فلا صار شاعرًا كالمثقفين الذين ملأ الدار قديمًا بكتبهم، ولا صار صاحب عمائر كالجهلاء الذين عمل معهم.

لكن منال بالتأكيد تحبه. تحبه رغم ما تغير من ملامحه، وما فقده من رشاقة وأحلام، تحب فيه الشاعر الذي اختفى، وتعشق فيه الخشونة والغيرة التي لم تأكلها منه العاصمة. وكان لمنال سر لطيف تحتفظ به داخلها وتبحث عنه كثيرًا، وهذا السر هو نورا إسحاق. ظلت تبحث عن نورا إسحاق سنوات طويلة، حتى التقت بها راهبة على باب الكنيسة. هتفت باسمها سعيدة والتفتت نورا بدهشة، وكان

مشهدٌ عجيبٌ أمام باب الكنيسة، لراهبة ومنتقبة تتحاوران، وينتهي الحوار بحضن كبير شاهده المارة وأولوه تأويلات متعددة، فالبعض قال إن السيدة المنتقبة جذبت بأعينها نورا إسحاق، فسألتها ما هو الإسلام، وأعلنت إسلامها واحتضنتها. وقال البعض إن الراهبة جذبت المنتقبة وجعلتها تتنصر وتحتضنها في حب.

بينما الحقيقة هي شيء ثالث، وهي قصة حب بين صديقتين من الصعيد، جمعتهما الأيام والظروف في بيت المغتربات في أسيوط، فالأولى خجولة تخشى الناس، والثانية تعرف أن الكثير من المسلمات لا يرحبن بمشاركة مسيحية غرفة واحدة. جمعتهما المحبة والغرفة الواحدة عدة سنوات، تشاركتا فيها الطعام والشراب والمذاكرة والنوم المتجاور، والأسرار البريئة عن ذلك الشاب الذي نظر اليوم لنورا من بعيد وتجاهلته، أو الشاب الآخر الذي حاول أن يكلم منال محمد فهربت من الكلام معه.

وحتى الخصام والغضب أيضًا تبادلتاه، حينما عادت منال إلى الغرفة لتجد نورا تضع صليبها الخشبي فوق المصحف، فيفور دم منال وتمسك بالصليب وتلقي به على الأرض، فينكسر في لحظة دخول نورا، التي تنحني وتلتقط الصليب في صمت وقد صار قطعتين، وتبادر منال في غضب:

- أنا التي فعلت ذلك لأني وجدته فوق المصحف.

تبتسم نورا في بساطة وتوضح:

- لم أقصد وضعه فوق المصحف.. لا تغضبي.. سأحصل على آخر من الكنيسة.

وبالفعل عادت نورا في اليوم التالي تحمل صليبًا معدنيًا غير قابل للكسر، وتتشاركان في تجهيز طعام الغداء، في صمت ينكسر بالتدريج إلى كلام بسيط، ويتحول إلى كلام مسترسل وابتسامات وضحكات ومحبة، ويظل الصليب مكانه على الكومودينو المجاور لطرف السرير الذي تنام فيه نورا، والمصحف على الكومودينو الثاني المواجه لطرف سرير منال، وتكون نورا التي تسهر للمذاكرة حريصة على إيقاظ منال وقت الفجر للصلاة.

ثلاث سنوات متتالية من الصحبة والمحبة، قبل أن تتزوج منال بالبرديسي قريبها، الذي تتحدث كل العائلة عن إقامته بالقاهرة، حيث الأحلام والمستقبل العريض. لم تكمل عامها الرابع بكلية الآداب، وفضلت الزواج على الليسانس، وودعت نورا إسحاق بعد أن تواعدتا أن تسأل كل منهما عن الأخرى مهما كانت الظروف. ودعتها منال لحضور حفل زفافها، ولم تتمكن نورا إسحاق من حضور الزفاف لوفاة خالتها في نفس اليوم، ولم تستطع الاتصال بها بعد ذلك، إذ سافرت منال إلى القاهرة وأكملت نورا حياتها في أسيوط.

-٢٤-

فريغة

قالت حياة لحسان:

- إن كان صادقًا، سيكون عند القلعة يجلس على حجر ويصطاد، وإن كان كاذبًا سيكون يأكل سمكًا في ذلك المطعم الفخم في أبي قير، ولكن مع امرأة جديدة.. ينظر نحو الشباك متجاهلاً نظراتها الفاحصة التي تلتهم وجهه منشغلاً بأي شيء سواها فتزداد به تعلقًا.. يجيد تمامًا أن يلقي الحبل لأي امرأة فتشنق نفسها به أمامه بتلذذ وحب.. بكلامه الصارم الخشن سيسميها قطعًا باسم رجل ليضحكها ويكسر أنوثتها، لتكن «فوزي أو رامي أو هاني».. سيشعرها بعدم الاهتمام.. سينظر إلى ساعته كأنه على موعد، وحينما يلتفت إليها سيلقي بملحوظة سلبية عن تسريحة الشعر أو لون طلاء الأظفار أو شكل الأكسسوار الذي يزينها.. استمعت إليه طويلاً قبل الإفاقة الكاملة من البنج.. ثلاث عمليات دقيقة متكاملة في القدم والساق والركبة.. كل مرة أجلس إلى جواره وأستمع بشغف وإنصات وأراقب شفاهه الغليظة تحت شاربه الكث، وهي تهمس بكلمات غير منتظمة، ويده وهي تهرش في جانب السرير بقوة، وهو يظن أنه يهرش في فخذه.. كان يهذي عن السمك والبحر والمرأة الرجل، ويكرر

جملة «لا تخبري أحدًا.. لا تخبري أحدًا.. لماذا تقولين إنني لا أحبك؟ من أدراك؟ هل حقًا لا أحب؟ أنا لا أحب.. لا يهم.. لا تخبري أحدًا.. قلبي ليس جافًا.. أنا هكذا غشيم.. يعجب أم لا يعجب؟ يا ستي أنا لا أعرف كيف أحب.. علميني.. لا تخبري أحدًا.. أنا لا أعرف.. هكذا خلقت.. لا تخبري أحدًا».

ماذا يجذب امرأة مثلي، في رجل ضخم يهذي بوجه غير وسيم وجسد غير منتظم ولا أحد يزوره؟ لماذا كلامه عن القلب الذي لا يحب أسرني هذا الأسر؟ أنا قوية.. رأيت مرضى كثيرين وشاهدت موتى وشاهدت من يحتضر أمامي.. لم يعد الألم والموت شيئان شديدي الإيذاء والإدهاش بالنسبة لي.. ربما فرحة الشفاء تعني الفرجة على الأهل يخرجون والمريض وسطهم، والزغاريد تملأ الكوريدورات وتصحبهم عبر الأسانسير والسلالم إلى باب المستشفى، حيث البقشيش السخي أو القليل وقطع الحلوى.. لكن البكاء أيضًا والصراخ يحيطان بمن يخرج ميتًا.. لا لهفة ولا عاطفة ولا مفاجأة لدى ممرضة جيدة مثلي.. أنا أفعل عملي بدقة.. لا أتوقع حدوث شيء.. المريض سيموت أو سيخرج أو سيظل معنا عدة أيام.. احتمالات متساوية للكل.. حتى الطبيب الشاب السمج الذي يتعامل مع الممرضات بثقة ذكورية مقرفة، كأننا جاريات في قصر أبيه، لم يكن يزعجني.. دفعي ليده بحدة حينما اقتربت من صدري، ونظرتي المحذرة من دون كلام، كانتا كافيتين ليستغلسني بعد ذلك، ويحول طريقته ويشرع في إلقاء النكات الساخرة عليّ أمام زميلاتي، مع استعداده لتلقي الضحكات المؤذية لمشاعري من قبلهن على

سبيل المجاملة. علق على صرامتي ساخرًا:

- أنتِ الممرضة الوحيدة التي تبدو رجلاً قام بعملية تحويل جنسي.

ابتسمت في هدوء وأخبرته أمامهن جميعًا:

- أمامك الكثير من الوقت لتكتسب الخبرة وخفة الظل يا دكتور، فأنا هنا منذ سبع سنوات.. رأيت الموت والحياة والشفاء والمرض، ولم يعد يضحكني إلا الكلام خفيف الظل بالفعل.. وأنت ثقيل الظل.. والطبيب الشاطر غالبًا خفيف الظل.. لكنني أتنبأ لك بمستقبل في الطب كبير، حينما تدرك أن إضحاك ممرضة بشكل حقيقي شيء صعب للغاية.

فلماذا ذلك الرجل بهاء أتتبعه.. أتنصت على هذيانه.. أتابع غطيطه الليلي.. أتلصص عليه من بعيد وعن قرب؟

التفت لي مرة وقال بصوته الخشن:

- أنتن شيطانات القسوة.. تتعاملن مع المرضى كأرقام حتى في هذا المستشفى الخاص، رقم الغرفة، رقم الحساب، وفي الآخر خرج رقم كذا إلى البيت أو إلى القبر، لا يهم.. تبتسمن لمن يدفع لكن أو يغمزكن في لطف.. طول المكوث في المستشفيات علمكن البلادة واللامبالاة.. أكيد اسمك «فوزي».

هممت بالرد بعد أن انتهيت من توضيب فراشه، لكنني آثرت الصمت حتى أسمعه أكثر، وأمنح خشونته قدرة أكبر

على الاستعراض.. فسأل:

- لماذا لا أرى ممرضة أخرى في وجهي؟ لماذا أنتِ فقط يا «فوزي» معي؟ أين ذهبت الأخريات؟ كان ردي المقتضب:

- هربن.

فابتسم:

- أريح.. «فوزي» أجدع منهن.. هل أنت متزوج يا «فوزي»؟

لم أرد. سألني وأنا أساعده للجلوس على السرير:

- هل تعلم يا «فوزي» كيف صدمتني السيارة؟ ها؟

نظرت إليه بصمت، فأكمل بابتسامة جميلة:

- كنت أجلس أمام المحل الخاص بي في التوفيقية وأدخن الشيشة، وهناك سيارة نصف نقل تقف وتنزل منها بضاعة.. كل شيء كان عاديًا يا «فوزي» لكن السيارة فجأة سارت إلى الخلف.. لم أشك للحظة أنها مجرد حركة طفيفة سرعان ما تتوقف، لكنها أكملت وانعقد لساني من المفاجأة، فالمسافة الفاصلة وسرعتها لن تسمح لي بالوقوف، وبالفعل مرت عجلاتها الثقيلة فوق قدمي وساقي وسحقت عظامي وأنا أصرخ في رعب، وانتبه أخيرًا أحدهم لها وقفز إلى داخلها ليزجر الصبي الأخرق الذي يقودها، ويوقفها قبل أن تجهز على باقي جسدي.. لماذا قفز الصبي الأخرق فريغة فيها

فجأة ومن دون أن يلحظه أحد؟ ماذا دهى ذلك الصبي العبيط؟ فريغة هذا طفل تجاوز جسده البلوغ وظل عقله طفلاً.. يسير دومًا في الشارع يبحث عن شيء يركبه.. يجري خلف سائقي الدراجات ليتركوه يركبها، فيضحكون ويسخرون.. ويجري خلف سائقي الكارو ليتركوه يركب الكارو، ويسخرون منه.. وهكذا كان فريغة في حالة جري مستمر في الشارع خلف الجميع، طالبًا أن يركب ما يركبون، ويتلقى السخرية، فيعود للجري بملابسه الرثة ووجهه الخالي من التعبير.. ويجلس جوار محل يتلقى علبة كشري من هذا وجنيهًا من ذاك، صامتًا يرقب الشارع وينتظر سيارة تثير رغبته فيجري خلفها مرة أخرى.. يطلب الركوب لكنه هذه المرة لم يطلب من أحد.. فقط ركب السيارة الدائرة وظل يعبث حتى مر على عظامي، وأنا الجالس على كرسي أمام محلي الخاص يا «فوزي».. لا بد أن هناك حكمة ما.

واصلت الصمت وأنا أفكر في الحكمة.. ثم رنت ضحكته عالية في الغرفة.. ضحكة ارتج لها جسدي وهو يضرب كفًا بكف:

- فريغة هذا عجيب لا نعلم متى ظهر في الشارع، لكنه موجود منذ زمن، يصنع الكوارث ولا يستطيع أحد أن يعاقبه..

ذات مرة استغلت إحداهن سذاجته ورجولته وظنت أنه صيد ثمين، بعد أن طال غياب الزوج في الخارج، وطالتها أيدي وألسنة المتحرشين.. سيدة جميلة وحيدة تجلس في

مكتبة صغيرة في وسط البلد.. لمحت فريغة وهو يجري بحثًا عن شيء يركبه، وعطفت عليه بالطعام والفاكهة وأغلقت عليه المكتبة ليلاً وفتحت له جسدها، وفي الليلة التالية مرت عليها حماتها لتطلب منها قسط الجمعية الشهري، وفي أثناء عد نقود الجمعية لحماتها، دخل فريغة ببساطة وتلقائية وخلع سرواله وهجم على المرأة زاعقًا: هيا نفعل مثل الأمس.. كان الكره القديم في حماتها كافيًا لفضحها وإغلاق المكتبة واختفاء سلوان ومكتبتها للأبد.. وتظل حكايتها مادة للضحك في الشارع شهورًا، من رجال ونساء لا يحبون الستر، ويقدمون طعامًا ونقودًا لفريغة حتى يحكي لهم ما حدث، لكن فريغة الساذج كان يلقي بأموالهم ونقودهم على الأرض في غيظ، ويشيح وجهه عنهم بعيدًا، ولا ينطق ويواصل الجري خلف السيارات، ويصنع المصائب.

تركته وخرجت بعد أن ساعدته على النوم بطريقة مريحة، وضبطت له التليفزيون على قناة مرحة، فطلب مني أن أغلقه وأن أظل يقظة وقريبة:

- أنا لا أنام بسهولة يا «فوزي» ولا أريد.. فبعد الدخول في النوم تهاجمني سيارات يقودها فريغة تسحقني وأصحو صارخًا.

-٢٥-

كذاب يا حسان

كان حسان يتبعها في أدب وطاعة ويسير وفق هواها، يدخل المطاعم والبارات والشواطئ ويسأل لها عن بهاء، بعد أن حددت له أوصافه بدقة. الأسمر ذو الشارب الكث والصلع الخفيف الطويل ذو الكرش الممتد قليلا أمامه، الذي يتكئ على عصا خشب شيك من الآبنوس، ويرتدي ملابس غالية تليق برجل ثري.

ليعود إليها ويخبرها بنصف الحقيقة:

- كان هنا منذ شهر.

ويحذف جملة «برفقة إحداهن».. أو: مر سريعًا من هنا. ويحذف جملة أنه «أتى ليودع المكان قبل السفر إلى خارج البلاد».. ويتابعها في صمت ودموعه تهبط في حلقه، حتى لا تظهر في عينيه وهو يلمح ألمها ويأسها وحزنها الظاهر، ولا يجد كلمات يخفف بها عنها إلا الطمأنة والتبشير بعودة الحبيب، والعثور عليه قريبًا، وهو لا يدري ماذا يفعل. ثلاثة أيام مرت ولا بد من أن زوجته والحانة تنتظرانه. الوقت الكافي لحجته في السفر إلى الصعيد ينتهي، لم تعد لديه حجة يقولها من خلال هاتفه المحمول لزوجته عن سر

بقائه بعيدا:

- الرجل المتوفى ترك صغارًا وأعمامهم يريدون أن يستولوا على ميراثهم، وهو عليه أن ينتظر يومًا أو يومين لحل الأزمة.

هكذا يكذب على زوجة تصدقه على مضض. هو لا يستسيغ الكذب ولا يجيده، لكن يجد نفسه مضطرًا إليه وفق قاعدة يزداد يقينًا بها يومًا بعد يوم، وهي أن كل شيء أهون من ترك حياة أو إغضابها.

كانت الأيام الثلاثة الماضية هي الأيام الأكثر جمالاً لديه. يحتفظ بها في ذاكرته ككنز ثمين. أيام كسر فيها روتين حياته، وكاد ينسي الحانة والزوجة والأولاد وكل شيء. لقد اعتبر حسان نفسه أنه ولد هنا بجوار البحر. بجوار عيني حياة.

ويسأل ويعلم أنه سافر بصحبة الفتاة إلى خارج البلاد، ولا يخبرها، يواصل الرحلة في أدب مستمتعًا بالقرب، وفي الليل يجلس في شرفته المواجهة لظلام البحر وصوت موجه الواصل، ويذوب عشقًا كل ليلة وينشد:

أيامنا بلقائكم أفراح ... وجميع أيام الملاح ملاح

قل للمحب إذا تهتك في الهوى ... إن التهتك في الغرام مباح

واخلع عِذارك لا تبال بعاذلٍ ... واطرب وغنّ فما عليك جُناح

أهل المحبة حين طاب شرابهم ... باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا

شربوا كؤوس الحب في حان الصفا ... فتمايلت سكرًا بها الأرواح

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

بالانكسار تحملوا في حبه ... فبدا عليهم من رضاه سماح

خلع الحبيب عليهمو خلع الرضا ... وأنالهم من فضله الفتّاح

ملأ الحبيب قلوبهم من نوره ... فشذاهمو من عطره فواح

تحيا القلوب (يحيى الحبيب) بذكرهم وبنورهم ... وتزول عند لقاهمو الأتراح

كل القلوب لهم تحن تشوّقًا ... وتحبهم، وبحبهم ترتاح

فتشبهوا إنْ لم تكونوا مثلهم .. إن التشبه بالكرام فلاح

اقتحمت عليه حياة غرفته وهو ينشد، وهي شاردة صامتة، ترتدي قميصًا رقيقًا شفافًا، ووجهها يزيده الشرود حسنًا. كان في شرفة الغرفة ينشد ووجهه للبحر، فالتفت إليها ووجدها مضاءة بكاملها في وسط الغرفة، وقد زها جسمها تحت القميص الأزرق، فاستند على سور الشرفة حتى لا يسقط ودخل الغرفة متوجسًا وجلست هي على طرف الفراش، وأقبل حسان مترددًا مرتجفًا فانيًا مرددًا في جذب:

- لم أقدر على البحر وأنا أنظر إليه من بعيد.. فكيف دخل البحر إلى غرفة حسان؟

لم ترد. ظلت صامتة على فراشه. وظل يتأملها...

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

-٢٦-

حانة تشتاق لحسان

كانت «أم كلثوم» تصدح في الحانة «يا حياتي أنا كلي حيرة» وتنطلق النار من صوتها، وهي تصف النار التي تتأجج داخلها، وعندما تصل إلى «اللي جوه القلب» الذي ما زال «في القلب جوه» وكيف أننا «رحنا واتغيرنا إلا هو.. هو نفس الحب واكتر.. هو نفس الشوق وأكتر». يرقص البرديسي طربًا وينضم إليه الجميع في وجد صوفي رهيب، مرددين في نغمة واحدة:

- هو هو هو هو.

تغمر وحدة التجلي المكان، فتصير الحانة رجلاً واحدًا مشتاقًا يئن، حتى إن الكافر لو دخل الحانة في تلك اللحظة، لأخذه المشهد إلى الإيمان الكامل. كسرت في تلك اللحظة النادرة من الوجد الجماعي، أكواب وزجاجات وتدحرجت حبات الترمس ودهس الجرجير بالأقدام.

-٢٧-

الطرد

أكملت حياة في شرود، وحسان يتابعها في هيام:

- طلق زوجته وتركت المستشفى وتزوجنا، على شرط ألا يتركني إلا إذا أحب.. ذقت معه سعادة لا توصف، وعرفت لذة لا أظن أنها موجودة لدى رجل آخر.. ثلاث سنوات يا حسان في الجنة.. ثم اختفى.. علمت أن هناك امرأة جديدة.. لم أتحمل أنا شرطه رغم أنه لم يبح لي بشيء.. فقط اختفى فعلمت أنه هنا يبدأ قصة جديدة.. ترك زوجته وأطفاله منذ أول عام تزوجني فيه.. تنازل لهم عن كل شيء،

وقال لي:

- أريد أن أصير حرًا يا «فوزي».. لا زوجة تقيدني ولا أولاد يربطونني بالأرض.. أريد أن أطير.

لم أدرك يومها أنه يتكلم عني أيضًا.. صار بلا عمل، وصرت أنا من أعمل وأوفر له كل شيء، حتى يستمتع بحريته.. كان يذهب إلى الخمارات الفارهة في الفنادق ذات الخمس نجوم، وحينما انهارت حالته الاقتصادية.. طاف بالخمارات الصغيرة.. زار خمارتك مرة وحدثني عنها وعنك،

ثم استيقظت ولم أجده.. طار يا حسان ولم يعد، وأريد طيري.. سأموت من دونه.. أنا لا أملك في حياتي شيئًا حقيقيًا إلا بهاء.. أنا وحيدة أبي الذي مات إلى جواري حزينًا ليلة خروج مصر من تصفيات كأس العالم.. كان ينتظر دخول المنتخب كأس العالم بفارغ الصبر.

وتضحك ضحكة ساخرة:

- مات وهو يردد «ومن ينتظر يا مصر أربع سنوات أخرى».. لم يشكُ قبلها من مرض قط.. يبدو أننا نموت بالحب.. نموت بالتعلق.

همّ حسان أن يتكلم، لكنها قاطعته في حدة وغضب:

- لا يصحبني كذاب يا حسان.

ارتبك حسان وجلس على كرسي قريب ولم يرد...

حياة تجلس الآن في غرفته وتوبخه وتنعته بالكذاب، وتقف في وسط الغرفة وتأمره بالرحيل. تطرده من حياتها بغتة، وتأمره بالعودة بمفرده إلى القاهرة، وتتركه وتغادر الغرفة، ليبقى مذهولاً. وأين يذهب من دونها؟ جلس على البحر ساعات طويلة، عيناه معلقتان بين البحر وبين شرفة الفندق في الدور الرابع. ساعات تمر يمتزج فيها الليل بالنهار، ويصلي على الكورنيش وينهي صلاته وعيناه على حالهما، تنظران للشرفة أكثر من البحر، وحوله تنتشر الكراسي والطاولات سريعًا، ليقبل المارة تباعًا، يمتعون أنظارهم ببحر يزورونه من السنة للسنة. يغسلون فيه هموم العاصمة، ويدركون

أن في البحر متسعًا للأحلام التي لم تتحقق.

يقترب رجل أسمر بعصا آبنوس وملابس غالية وكرش ممتد وصلع خفيف، برفقة فتاة رائعة الجمال، ويجلسان على طاولة على مقربة من حسان. يتأمله حسان طويلاً. يبدو أنهما عاشقان. يبدو ذلك على الفتاة أكثر، أما الرجل فيبدو مهمومًا شاردًا، لا ينظر إليها كثيرًا. صامت وواثق من نفسه ومهموم. ينظر إلى البحر كأنه يعرفه جيدًا، بينما الفتاة لا ترفع عينيها عن وجهه. تحدثه بشغف واهتمام ولا تتوقف. ورغم فارق السن بينهما، فإنه ليس أبًا أو عمًّا، هو الحبيب. بالتأكيد لن تنظر فتاة لأبيها بهذا الشوق صباحًا على بحر، إلا لو كان حبيبها.

يسترق السمع حسان إلى همسات الفتاة المعاتبة للرجل الشارد. يسمع أنها تلومه على شروده وعدم اكتراثه بها، رغم أنها تحدثه بكل كيانها. الرجل في بساطة وحنان يلتفت لها وهو يدق عصاه بين يديه ويرد بنبرة مميزة:

- أنا صامت لأني أسمعك يا «شكري».

تضحك الفتاة بشدة وتهتز من الضحك، وهي تزيح شعرها الذي التصق بوجهها من مشاركة الهواء لضحكاتها. يبدو أنه يعرف كيف يضحكها هذا الرجل، حينما يناديها باسم ذكوري.

عند تلك اللحظة يفتح حسان فمه وعينيه ويدرك أنه على مسافة مترين من بهاء، فيبتسم في فرحة وطيبة. لقد وجد

الرجل. وجد حبيب حياة الذي يبحث عنه. هل يقترب منه ويخبره أن حياة في الفندق المقابل تنتظره؟ هل يقول له إنه يعرفه جيدًا؟ لكن حسان يتردد ويظل يحدق فيهما عن بعد. كيف يقول للرجل إن هناك امرأة أخرى تبحث عنه؟ وماذا سيكون رد فعل الفتاة التي لم تنته ضحكتها معه بعد؟ وماذا لو لم يكن هذا الرجل هو نفسه بهاء؟ فليس من الضرورة أن كل من يخاطب فتاة باسم ذكوري يكون بهاء. بإمكانه أن يبتعد قليلا وينادي بصوت عالٍ:

- أستاذ بهاء.

فإن كان هو سيلتفت بالضرورة.

المرء عادة يلتفت حينما يسمع أحدًا يهتف باسمه. ماذا لو لم يلتفت؟ ماذا لو كان هو بهاء بالفعل لكنه لا يأبه بمن ينادي عليه؟ هل يقترب منه ويخبره أن «فوزي» موجود هنا بالإسكندرية في هذا الفندق القريب، ويريد أن يراه؟ بالتأكيد لحظتها سيتذكر بهاء من هو «فوزي» ويدرك أنها حياة، ولن تلحظ الفتاة التي هي «شكري» تلك الشفرة بالتأكيد، وسيتركها بهاء على الفور، ويفهم ويعود مع حسان، ليلتقي الحبيبان «فوزي» و«بهاء» أو «حياة وبهاء»، وتظل «شكري» تنتظر.

ارتاح حسان للفكرة، لكن الفتاة الجالسة مع الرجل لم ترتح لنظراته المتواصلة، وهمست للرجل في توتر:

- علينا الرحيل بسرعة.. هذا الرجل يحدق فيّ ويبدو أنه

يعرفني.. ربما كان من الجيران أو يعرف أبي.

ترك الرجل -الذي ربما هو بهاء- النقود على الطاولة، ووقف والفتاة المرتبكة خلفه، وأشار لأقرب سيارة أجرة مقبلة واستقلاها وغادرا، قبل أن ينتهي حسان من التفكير وأخذ القرار. أما كلمة بهاء التي خرجت من فم حسان بعد تحرك التاكسي، فقد كانت أضعف من أن يسمعها حتى النادل الذي أتى لحمل الأكواب وأخذ النقود. حياة في غرفتها تتطلع للمرآة وتشعر بالضيق، وتتأهب لحمل حقيبتها وتخرج وتهبط في مصعد الفندق إلى البهو، لإنهاء حسابها هناك على باب الفندق.

ركب حسان بلا تردد أقرب سيارة أجرة خلف بهاء والفتاة، وصارت مطاردة حقيقية. الفتاة ترتبك بشدة بعد أن لاحظت وهي تلتفت في رعب، أن الرجل الذي كان إلى جوارهما ينظر إليها. ها هو يتابعها. وتلكم بهاء الجالس إلى جوارها في توتر.

هبطت حياة من الفندق تحمل حقيبتها. التقت أعينها بالبحر وكورنيشه الخالي من حسان، وقررت العودة من الإسكندرية.

في القلعة كان حسان يلهث صاعدًا السلالم بعد يأس، فهو غير متأكد أنهما قد دخلا هنا، وليس على يقين بأن الرجل هو الرجل، لكن الأمانة تقتضي أن يكمل المحاولة. كان الرجل يقف بعصاه بجوار السور يتأمل حركة البحر أسفله، وحسان خلفه يلهث، وحياة تقود سيارتها باتجاه القاهرة،

والحانـة مغلقـة والزاويـة تسـتعد لأذان العـصر، وعـلى سـطح القلعـة رأى بهـاء يأخـذ نفسًـا عميقًـا ويلقـي نفسـه في البحـر، ومـن دون لحظـة تـردد واحـدة، ألقى حسـان بنفسـه خلفـه بنيـة الإمسـاك بـه وإنقـاذه مـن المـوت غرقًـا، ونـسي حسـان أنـه لا يعـرف السـباحة.

-٢٨-

من غرق نجا

- أفق يا حسان فليس بعد الغرق إلا النجاة.

سمع صوت الشيخ وفتح حسان عينيه بالفعل. وجد الشيخ يقبله بين عينيه ويصطحبه مبتسمًا إلى داخل الزاوية:

- هل ذقت يا حسان ما ذاق؟ فما أكثر الرواة وما أقل الحكايات الصادقة.

في الزاوية ربت الشيخ على كتف حسان وقال للمريدين:

- هنئوا أخاكم بسلامة الوصول.

وقبّل يديه. قبّل أغلبهم يديه وامتنع البعض، وابتسم الشيخ وقال:

- اسرد عليهم قصتك يا حسان.

وبدأ حسان يسرد والمريدون يصغون والشيخ يبتسم، والناس تدخل إلى الزاوية تباعًا وينضمون إلى الحلقة التي أخذت تتسع، وحسان يرى بينهم وجوه زبائن الحانة. فريد الصحفي وعبد الله العراقي وإبراهيم الباز وتحسين يمامة والبرديسي. يهزون رأسهم مؤمنين على صدق حديثه، بينما

عينا حسان معلقتان وشاخصتان إلى أعلى تبحثان عن حياة.

-٢٩-

ما بعد الحكاية

كان عبد الله السكران قد أقلع عن زيارة الحانة منذ أن تركها حسان، وظل يقضي غروب كل يوم قرب النيل، عند النقطة التي خرج منها يومًا ويبتسم. أعوامه تمر مع حركة الماء. ليس هناك ندم ولا فرح، لكنه شعور أشبه بالرضا. لم يعد مشغولاً بالتوفيق بين زينب وفواكه، ولا حتى بالعمل. فقط يقضي ذلك من قبل وقت الغروب بساعة وإلى دخول الليل وظهور النجوم بشكل جلي. ويسير في شوارع بغداد بخياله. يسير فيها محملاً بأنفاس النيل، وحينما يفتح عينيه يجد فواكه تتأمله ضاحكة:

- تريد أن تهج مرة أخرى؟ لكن هيهات.. هذا المرة زوجتان يا عبد الله.. زمن المعجزات انتهى مع فواكه. ويستند على كتفها ويعود راضيًا.

وجد البرديسي نفسه في قيادة الحانة، واستعاد الكثير من نشاطه وصحته أيضًا، وقرر أن يشرع في تسريب حكاية جديدة عنها تنسبها إليه منذ النشأة، واستقدم أهل الثقة من أقاربه ليخدموا فيها، وكان طموحه لا حدود له، حتى إن فكرة الكتابة عاودته من جديد، وشرع يكتب عن الحانة التي غيرت مسار جنوبي موهوب خطفته العاصمة.

www.sa7eralkutub.com ← للكتب الحصرية

ومات دكتور يمامة ذات ليلة في الحانة، وهو يحلل للباقين فلسفة الخمر والشراب، ولماذا تسكب العبرات في الحانة من قساة القلوب أحيانا. وخيم بموته حزن قصير على المكان، سرعان ما غلبته ضحكات الرواد، حين قال أحدهم:

- لقد غادرنا الدكتور يمامة بسرعة..

فرد الآخر:

- نعم لقد طار الدكتور يمامة.

دخل الأستاذ فريد في عدة فضائح متتالية، وكان مادة إعلامية ساخنة، واختفى في بيته فترة قبل أن يدخل الحانة منهكًا مبتسمًا، وهو يحمل حقيبة في يده. رد على فضول البرديسي عن محتواها شاردًا:

- كنت أجمع أسطوانات جديدة ستضع حذائي في فم من أهانوني.

مرت إترا أيضًا ذات ليلة قبل عودتها لبلادها، واستقبلها البرديسي بحماس وصل إلى رفضه أن تدفع أي نقود نظير ما شربت، وشد على يدها وطلب منها أن تتذكره بالخير، وأن تعتبر أن لها في البلاد أخًا. وحينما سألته عن حسان ارتبك وغمغم:

- لا أعرف عنه شيئا. فحملته بالسلام إليه، فهز رأسه موافقًا.

للمزيد من الحصريات انضموا لجروب ساحر الكتب
facebook.com/groups/Sa7er.Elkotob

غاب الباز عن الحانة فترة طويلة، وأقسم أحدهم إنه رآه في التلفاز في ملابس داعشي في سوريا، وعرفه من أعينه رغم اللثام، وصارت قصة مصدقة.

تقاعد الحارس أيوب وصار يمر على الحانة بشكل غير رسمي، ولم يقصر معه البرديسي في المعلوم.

تمت رواية علي يماني، ووشى به الباز لدى البرديسي. وطلب البرديسي قراءتها كاملة وبصوت عالٍ ودفعة واحدة على زبائن الحانة الرئيسيين، وجعل القرار بيدهم، هل تُنشر أم لا؟ وكان البرديسي يتحلى بالديمقراطية، ووافق الزبائن جميعًا على نشر الرواية.

وكانت منشورة بالفعل على عدة مشابك على حبل خارج الحانة، بعد أن أغرقها البرديسي في برميل النبيذ.

كانت فرحة سوسن بعودة زوجها فرحة لا توصف. فرحة أنستها حتى هيئته الغريبة التي دخل بها عليها، بعباءة جديدة ووجه منير. عباءة أهداها له الشيخ وهو يقول:

- لكل رحلة كسوة، وهذه كسوتك يا حسان.

وحينما سألته عن الحانة أجاب:

- سأزورها على فترات ولا تخشي على الرزق شيئًا، فلقد وجدت عملاً بأحدي المستشفيات.

وعلى باب المستشفى صباحًا كان المدير يوقع له طلبًا

للالتحـاق بالعمـل وهـو يبتسـم:

- لقد أتيت إلينا بواسطة لا ترد.

وفي ممراتهـا كانـت يـده تعـين المـرضى وعينـه تبحـث عـن حيـاة.

الفهرس

عجب ٩
عبد الله العراقي ١١
جميع الألعاب للتسلية ١٥
قصة نجاح فاشل ٢٣
أحزان نينوى ٢٧
محنة حسان ٣١
فضفضة ٣٣
وللفنجري قلب ٣٧
حال حسان ٤٣
العاصمة ٥١
زينب لم تأت سباحةً ٥٥
المحاضرة ٥٩
أمر ٦٣
الراسخون في الحزن ٦٩
قتلته أم كلثوم ٩١
الروائي ٩٧
صحبة ١٠١
الحانة المباركة ١٠٥
الأميرة ططر ١١١
ميخائيل صاحب الحانة ١١٥
حياة ١٢٣
البحر ١٣٣
إدارة جديدة ١٤٥
فريغة ١٥١
كذاب يا حسان ١٥٧
حانة تشتاق لحسان ١٦١
الطرد ١٦٣
من غرق نجا ١٦٩
ما بعد الحكاية ١٧١

بوَّاب الحانة

جميع الألعاب للتسلية

تلك كانت اللافتة الوحيدة في الحانة، ويُلمعها بيد مخلصة بواب الحانة حسان.. و"بواب الحانة" لا يسكر.

بواب الحانة يستقبل الضيوف بابتسامة ويربت على كتف السكارى بحنان عند الوداع، بواب الحانة طيب والخمر ينسكب من عينيه.. رضي الله عن بواب الحانة.

وعلى الرغم من أن زبائن الحانة يشكلون قوامها وتكوينها ومزاجها، فحقيقة الحانة وروحها في "البواب"، سنوات طويلة مرت لا يتذكرها بواب الحانة نفسه، لكنه يتذكر أنه كان أزهريًا حافظًا للقرآن وصاحب صوت جميل وعلّامة في الفقه على المذاهب الخمسة: الأربعة المشهورة وخامسها الفقه الجعفري، الذي أجازه الأزهر كفقه معتبر يجوز التعبد به إلى جوار فقه أئمه السنة الأربعة.

كان مثار إعجاب الجميع. شاب يافع نحيل يحفظ آلاف الأبيات من الشعر، يخلو ليلاً ليغني فيجد الطلبة في "الأزهر" يستمعون إليه في حلقات، اختار "الصوفية" وارتاح لها أكثر من مذاهب أولئك المتشددين قليلي الابتسام، وظل على طريقه وطريقته وملازمته لـ"شيخه"، منعزلاً قدر الإمكان عن الدنيا عدا صوت "أم كلثوم" ولعب الشطرنج ومشاهدة الأفلام. كان فريداً بين المريدين.

من أعمال الكاتب

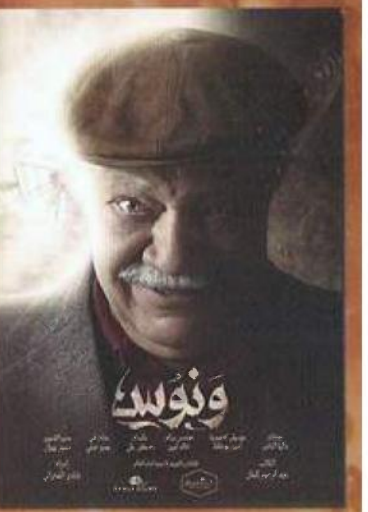

ساحر الكتب